الفصل الأول

الطـرفان ووجـه الشبه

التشبيه

التشبيه فن من فنون البيان ، له أثره وخطره فى الأسلوب ، فهو يجعل البعيد قريبا ، والخفى ظاهرا ، والغائب حاضرا مشاهدا ، والمستحيل ممكنا ، والمختلف مؤتلفا، وقد عرض الإمام الرازى لكثير من قضاياه ، وهو يتناول الآيات الكريمة بالشرح والتوضيح ، ونظرا لأن همته كانت متجهة فى المقام الأول صوب التفسير ، فإنه لم يقف طويلا أمام المباحث البلاغية ، ومنها التشبيه ، بل كان يمر بها مرورا سريعا ، ويلقى عليها نظرات عابرة ، حتى إنه أحيانا كان يُغفل بعض التشبيهات ، فيتركها دون بيان ، أو توضيح – فمثلا – نجده عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ** ﴾ [هود : ٤٢] . لم يذكر شيئا عن تشبيه الموج بالجبال[١] .

وقد يشير إلي بعض أركان التشبيه إشارة خاطفة ، فقد قال وهو يتكلم عن تشبيه القمر بالعُرجون القديم فى قوله تعالى : ﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** ﴾ [يس : ٣٩] .

« ... أى رجع فى الدقة إلى حالته التى كان عليها من قبل (والعرجون) من الانعراج ، يقال لعود العذق عرجون ، والقديم المتقادم الزمان ... »[٢] .

فقوله : « ... فى الدقة » إشارة إلى وجه الشبه بين القمر ، والعرجون القديم، ولكنه قاصر عن الوفاء بحق هذا التشبيه ؛ لأن التشبيه بالعرجون القديم ليس فى الدقة وحدها بل فى الدقة ، والانحناء ، والاصفرار[٣] .

* * *

---

(١) ينظر التفسير الكبير ٩ ، ١ / ٢٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ١٣ ، ٢ / ٧٢
(٣) ينظر الكشاف ٣ / ٢٨٧ .

الطرفان بين المحسوس والمعقول

ترددت كلمات المحسوس ، والمعقول ، والحسيات ، والعقليات كثيرا فى تفسير الإمام الرازى ، بعضها فى مواضع بعيدة عن التشبيه ، وبعضها فى أثناء تناوله لتشبيهات القرآن الكريم ، وإن كان ذلك نادرا ، ولكنه فى كتابه البلاغى (نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز) فَصَّلَ أقسام التشبيه من حيث حسية الطرفين، وعقليتهما تفصيلا دقيقا فقال : « المشبه والمشبه به إما أن يكونا محسوسين ، أو معقولين ، أو المشبه معقولا ، والمشبه به محسوسا ، أو المشبه محسوسا ، والمشبه به معقولا »(١) .

وسأتناول بعون الله تعالى بعض هذه الأنواع التى عرض لها أثناء تفسيره للآيات التى اشتملت على تشبيهات قرآنية ، وهى :

١- تشبيه المحسوس بالمحسوس .

٢- تشبيه المعقول بالمحسوس .

٣- تشبيه المحسوس بالخيالى .

أولا : تشبيه المحسوس بالمحسوس :

وردت كلمة الحسيات فى كلامه ، وهو يتناول صفات الحور العين فى الجنة، وأراد بالحسيات الصفات الحسية التى تدل على فرط جمالهن ، وقد قابلها بكلمة العقليات ، وأراد بها الصفات العقلية التى تدل على عفتهن ، واتصافهن بصفات الكمال ، وكأنه يريد أن يقول : إنهن قد جمعن الحسن من أطرافه ، فقد قال وهو يلقى الضوء على التشبيه فى قوله تعالى : ﴿ **كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ** ﴾ [الرحمن : ٥٨] .

« ... وهذا التشبيه فيه وجهان : **أحدهما** : تشبيه بصفائهما **وثانيهما** :

---

(١) نهاية الإيجاز / ٥٨ .

بحسن بياض اللؤلؤ ، وحمرة الياقوت ، والمرجان صغار اللؤلؤ ، وهى أشد بياضا، وضياء ، من الكبار بكثير ، فإن قلنا : إن التشبيه لبيان صفائهن ، فنقول : فيه لطيفة هى أن قوله تعالى : ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ [الرحمن : ٥٦] إشارة إلي خلوصهن عن القبائح ، وقوله : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ إشارة إلى صفائهن فى الجنة ، فأول ما بدأ بالعقليات ، وختم بالحسيات ، كما قلنا : إن التشبيه لبيان مشابهة جسمهن بالياقوت [١] والمرجان فى الحمرة ، والبياض ، فكذلك القول فيه حيث قدم بيان العفة على بيان الحسن ، ولا يبعد أن يقال : هو مؤكد لما مضى ؛ لأنهن لَمَّا كُنَّ قاصرات الطرف ، ممتنعات عن الاجتماع بالإنس والجن ، لم يُطْمَثْنَ ، فهن كالياقوت الذى يكون فى معدنه ، والمرجان المصون فى صدفه ، لا يكون قد مَسَّهُ يَدُ لامس [٢] ، وواضح أن الطرفين فى هذا التشبيه هما الحور العين ، المعبر عنهن بالضمير فى (كأنهن ...) والياقوت والمرجان وكلاهما من قبيل المحسوس ، وقد بين أن تشبيههن بالياقوت والمرجان ، إما أن يكون فى صفائهما ، أو فى حسن بياض اللؤلؤ ، وحمرة الياقوت .

وقال فى قوله تعالى في شأن الحور العين أيضًا : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات : ٤٩]. « المكنون فى اللغة المستور يقال : كننت الشئ ، وأكننته ، ومعنى هذا التشبيه : أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة ، فإذا كان مكنونا ، كان مصونا عن الْغَبَرَة ، والقترة ، فكان هذا اللون فى غاية الحسن ، والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور [٣] .

ويلاحظ أن الإمام الرازى أشاد وهو يوضح هذا التشبيه باتصاف الحور العين باللون الأبيض المشوب بصفرة قليلة ، وهو من نواحى الجمال في المرأة ، ومن أجل ذلك كان العرب يمتدحون النساء ببياض اللون ، ويتغنون به فى شعرهم ، ومن ذلك ما قاله امرؤ القيس فى وصف صاحبته :

---

(١) فى التفسير : الياقوات بزيادة ألف بعد الواو ، وهو خطأ مطبعى .

(٢) التفسير الكبير ١٥ ، ١ / ١٣١ . (٣) التفسير الكبير ١٣ ، ٢ / ١٣٨ .

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل [١]

ومن تشبيه المحسوس بالمحسوس قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الشورى : ٣٢] . وقد تناول تشبيه السفن فى البحر فى موضعين :

أحدهما : عند تفسير الآية السابقة فى سورة الشورى فقال : « ... اتفقوا على أن المراد بالأعلام الجبال، قالت الخنساء فى مرثية أخيها :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

ونقل أن النبى ﷺ استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوى إلي هذا البيت قال : قاتلها الله !! ما رضيت بتشبيهها له بالجبل حتى جعلت على رأسه نارا ، إذا عرفت هذا فنقول : هذه السفن العظيمة التى تكون كالجبال تجرى على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجوه ، وعند سكون هذه الرياح تقف ... [٢] .

وظاهر من كلامه أن تشبيه السفن بالأعلام إنما هو فى عظمها ، وضخامتها؛ ولذلك حرص على تبيان أن المراد بالأعلام فى هذا التشبيه الجبال ، مستشهدا على ذلك بالاستعمال العربى الأصيل ، وأشار إلي أن تسيير تلك السفن التى تحاكى الجبال ضخامة على صفحات الماء السائل الرقراق – مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى ، وآية من آياته .

ثانيهما : عند تفسير قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن : ٢٤]. فقال : « قوله : ﴿فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ لأن التقدير حينئذ : له السفن الجارية فى البحر كالأعلام ، فيكون

---

(١) المهفهفة – لطيفة ، الخصر ضامرة البطن ، المفاضة – العظيمة البطن ، المسترخية اللحم . الترائب – جمع تريبة ، وهى موضع القلادة من الصدر . السَّجَنْجَل – المرآة .

يصفها بأنها ضامرة الخصر والبطن ، بيضاء اللون ، يتلألأ صدرها صفاء كتلألؤ المرآة .

شرح المعلقات السبع ، لأبى عبد الله الحسين بن أحمد الزوزنى / ٢٠ بتصرف .

(٢) التفسير الكبير ١٤ ، ١ /١٧٥ – ١٧٦ .

أكثر بيانا للقدرة ، كأنه قال : له السفن التى تجرى في البحر كالأعلام ، أى كأنها الجبال ، والجبال لا تجرى إلا بقدرة الله تعالى؛ فالأعلام جمع العلم الذى هو الجبل، وأما الشِّراع المرفوع كالعلم الذى هو معروف ، فلا عجب فيه ، وليس العجب فيه ، كالعجب فى جرى الجبل فى الماء. . . » (١) .

فنجده قد أكد فى هذا الموضع أيضًا أن المقصود من الأعلام الجبال ، ولم يرتض أن يكورن المراد بها الشرع المرفوعة فوق السفن ، الشبيهة بالأعلام ، الخفاقة فوق سَوَاريهَا ، لأن كون الأعلام بمعنى الجبال أدل على إظهار قدرة الله تعالى من جعلها بمعنى الأعلام التى ترفرف فى أماكنها العالية .

ويبدو – والله أعلم بمراده – أن الذكر الحكيم آثر كلمة الأعلام علي كلمة الجبال ؛ لأن المقصود تشبيه السفن الكبيرة ، التى تمخر عباب البحر ، وتشق أمواجه ، بالجبال الشاهقة ، لا مطلق جبال ؛ لأنه ليس كل جبل علما ، بل العلم هو الجبل الذى طال وارتفع (٢) .

ومن تشبيهات المحسوس بالمحسوس التى تناولها بالشرح ، والإيضاح قوله تعالى فى إهلاك (عاد) بالريح العاتية : ﴿ **كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴾ [الحاقة :٧]

فقال : « ... أى كأنهم أصول نخل خالية الأجواف ، لا شئ فيها ، والنخل يؤنث ويذكر قال الله تعالى فى موضع آخر : ﴿ **كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ** ﴾ [القمر : ٢٠] ... ثم يحتمل أنهم شبهوا بالنخيل التى قلعت من أصلها، وهو إخبار عن عظيم خلقهم ، وأجسامهم ، ويحتمل أن يكون المراد به الأصول، دون الجذوع ، أي أن الريح قد قطعتهم حتى صاروا قطعا ضخاما ، كأصول النخل، وأما وصف النخل بالخواء ، فيحتمل أن يكون وصفا للقوم ؛ فإن الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم ، كالنخل الخاوية الجوف ، ويحتمل أن تكون

---

(١) المصدر نفسه ١٥ ، ١/١٠٤ . (٢) ينظر معانى القرآن ، للفراء ٣ / ١١٥ .

الخالية بمعنى البالية ؛ لأنها إذا بليت خلت أجوافها ، فشبهوا بعد أن أهلكوا بالنخيل البالية [1] ، وقد أبرز الإمام الرازى ما صوره هذا التشبيه لمصارع هؤلاء القوم ، وقد تناثرت جثثهم التى ألقت بها الريح فى اتجاهات مختلفة ، كجذوع النخل التى اقتلعت من أصولها ، وتركت ملقاة على الأرض ، أو أن الريح مزقت أجسامهم ، وفرقت أشلاءها الضخمة فوق أرضهم التى شهدت عصيانهم ، وجحودهم ﴿ **وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ** ﴾ [فصلت : ١٦] ، وأود أن أشير هنا إلى أنه عرض لكثير من تشبيهات المحسوس بالمحسوس فى مواطن كثيرة من تفسيره ، ولكنى لن أستطرد فى إيراد المزيد منها لأمرين :

أولهما : أن الهدف من هذا البحث ليس استقراء التشبيهات ، أو غيرها استقراء تاما ؛ ولذلك فإننى سأكتفى بالنظير عن نظيره ، على ألا أغفل مكانا فيه إضافة جديدة ، تخدم البحث البلاغى .

ثانيهما : أننى سأذكر – إن شاء الله تعالى – فيما يأتى خلال مبحث التشبيه تشبيهات متنوعة ، فى وجه الشبه ، وأدوات التشبيه ، وغير ذلك .

ثانيا : تشبيه المعقول بالمحسوس :

كثر في القرآن الكريم تشبيه المعقول بالمحسوس ؛ لأن فيه إظهارا للمعانى المعقولة فى صور محسوسة ، تألفها النفس ، ويأنس إليها القلب ، وقد عرض الإمام الرازى لتشبيهات من هذا النوع فى عدة مواضع ، وهو كعادته لا يذكر الطرفين صراحة ، بل يفهمان من شرحه ، وتوضيحه .

من هذه التشبيهات ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ** ﴾ [الرعد : ١٤] . فقد أشار إلى أن التشبيه فى الآية صَوَّرَ الكفار الذين يدعون من دون الله آلهة أخرى ، وهي لا تسمع ، ولا تنفع بصورة من يبسط كفيه إلي الماء ، ليروى ظمأه ، ويبل صداه ، فلا يجيبه الماء ، ولا يبلغ فاه يقول فى ذلك :

---

(١) التفسير الكبير ١٥ ـ ٢/١٠٥ .

« ... ثم قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ** ﴾ يعنى الآلهة الذين يدعونهم الكفار ، من دون الله ، لا يستجيبون لهم بشئ مما يطلبونه إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء ، والماء جماد ، لا يشعر ببسط كفيه ، ولا بعطشه، وحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ، ويبلغ فاه ، فكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ، ولا يستطيع إجابتهم ، ولا يقدر على نفعهم، وقيل : شبهوا فى قلة فائدة دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه، ليشربه، فيبسطهما [1] ناشرا أصابعه ، ولم تصل كفاه إلى ذلك الماء ، ولم يبلغ مطلوبه من شربه [2] » .

وكلامه حول هذا التشبيه منقول من الكشاف إلا قليلا من الكلمات ذكر مرادفاتها ، وقد صرح بأخذه عنه عند مطلع حديثه في تفسير هذه الآية التى نحن بسبيلها [3] .

يقول صاحب الكشاف : « ... (والذين يدعون) والآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله (لا يستجيبون لهم بشئ) من طلباتهم (إلا كباسط كفيه) إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه أى كاستجابة الماء مَنْ بَسَطَ كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه، ولا بعطشه وحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ، ويبلغ فاه ، وكذلك ما يدعونه جماد، لا يُحِسُّ بدعائهم ، ولا يستطيع إجابتهم ، ولا يقدر على نفعهم ، وقيل: شبهوا فى قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه ، فيسبطهما ناشرا أصابعه ، فلم تلق كفاه منه شيئا ، ولم يبلغ طلبته من شربه [4] ، وينبغى أن أوكد هنا أن الإمام الرازى لا يأخذ عن الكشاف ، أو غيره كيفما اتفق ، دون

---

(١) فى التفسير (فيبسطها) بضمير المفردة ، ولعله خطأ مطبعى ، والصواب ما أثبته وقد رجعت إلى طبعة قديمة للتفسير فوجدت (فيبسطها) كما هى ٥ / ١٩٠ طبعة المطبعة الخيرية ١٣٠٨ هـ .

(٢) التفسير الكبير ١٠ ، ١ / ٣٠ .

(٣) المصدر نفسه والموضع .

(٤) الكشاف ٢ / ٢٨٣ - ٢٨٤ .

تمحيص ، أو تدقيق ، بل يأخذ ما يوافق رأيه ، ويناسب مبتغاه ، فقد أثنى على صاحب الكشاف الثناء الجميل ، عندما راقه كلامه [1] وعابه وشنع عليه ، عندما نَبَا كَلاَمُهُ عن سمعه وقلبه [2] .

وأعود للتشبيه فأقول : قد يتوهم من يقرأ قوله تعالى : ﴿ **لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ ...** ﴾ أن هناك نوعا، ولو ضئيلا من استجابة الآلهة المزعومة لهؤلاء الذين يدعونهم من دون الله، وحقيقة الأمر أن استجابتهم قَلَّتْ ، أو كثرت لم توجد ، ولن توجد ، حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، ولذلك صرح العلامة أبو السعود – رحمه الله – بأن هذا من قبيل التعليق على المحال فقال : « .. والمراد نفي الاستجابة رأسا ، إلا أنه قد أخرج الكلام مخرج التهكم بهم ، فقيل : لا يستجيبون لهم شيئا من الاستجابة إلا استجابة كائنة فى هذه الصورة ، التى ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا ؛ فهو فى الحقيقة من باب التعليق بالمحال » [3] .

---

(١) أشاد بفضله عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ...** ﴾ [غافر : ٧] .

لإبرازه فائدة (ويؤمنون به) بعد الحمد والتسبيح ، فقد بين أن الله سبحانه وتعالى لو كان حاضرا بالعرش ، والحملة يؤمنون به عن مشاهدة ومعاينة ، لما استحقوا الثناء العظيم من الله تعالى . ينظر الكشاف ٣ / ٣٦١ .

وقد علق الإمام الرازى على هذا الكلام بقوله : « ... ورحم الله صاحب الكشاف ؛ فلو لم يحصل فى كتابه إلا هذه النكتة ، لكفاه فخرا » . التفسير الكبير ١٤ ، ١ / ٣٤ .

(٢) – مثلا – عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ... **وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً** ﴾ [الإنسان : ٢٨]

ذكر أن صاحب الكشاف قال فى قوله تعالى : ﴿ ... **وَإِذَا شِئْنَا** ... ﴾ « إن حقه أن يكون بإن ، لا بإذا ... » الكشاف ٤ / ١٧٢ .

ثم عقب عليه الإمام الرازى . يقوله : « ... واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن فى لفظ القرآن ، وهو ضعيف ... فهنا لما كان الله تعالى عالما بأنه سيجئ وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم فى الخلقة، وأضدادهم فى الطاعة، لا جرم حسن استعمال حرف (إذا) . التفسير الكبير ١٥ ، ٢ / ٢٦١ .

(٣) تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم ٣ / ٥ / ١١ .

ومن تشبيه المعقول بالمحسوس قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ** ﴾ [إبراهيم : ١٨] .

وقد تكلم الإمام الرازى عن هذا التشبيه من ناحيتين :

أولاهما : فائدته وثمرته ، فقال : « اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع عذابهم فى الآية [١] المتقدمة ، بَيَّنَ فى هذه الآية أن أعمالهم بأسرها تصير ضائعة باطلة ، لا ينتفعون بشئ منها ، وعند هذا يظهر كمال خسرانهم ؛ لأنهم لا يجدون فى القيامة إلا العقاب الشديد ، وكل ما عملوه فى الدنيا وجدوه ضائعا باطلا ، وذلك هو الخسران الشديد » [٢] .

ثانيتهما : وجه الشبه ، فبعد أن ذكر بعض الآراء التى تتعلق بالآية – بين وجه الشبه فى هذا التشبيه فقال : « اعلم أن وجه المشابهة بين هذا المثل ، وبين هذه الأعمال ، هو أن الريح العاصف تُطَيِّرُ الرماد ، وتفرق أجزاءه ، بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ، ولا خبر ، فكذا ههنا ، أن كفرهم أبطل أعمالهم ، وأحبطها ، بحيث لم يبق من تلك الأعمال معهم خبر ، ولا أثر ... » [٣] .

ويلاحظ أنه لم يذكر الطرفين فى هذا التشبيه صراحة ، وإن أمكن فهمهما من خلال حديثه عن وجه الشبه ، ويمكن إلقاء مزيد من الضوء عليهما فأقول : المشبه هو هيئة أعمال الكافرين التى كانوا يرجون الثواب عليها ، ثم وجدوها ضائعة ، لأنها لم تُبْنَ على أساس من الإيمان ، والمشبه به هيئة الرماد المجتمع الذى فرقته الرياح ، وبددته ولم تبق له أثرا .

وصورة هذا الرماد الذى تذروه الرياح ما ثلة أمام أعين المشركين فى حلهم ، وترحالهم ، وفي غدوهم ، ورواحهم ، ولهذا كانت تشبيهات القرآن خالدة ؛ لأن

---

(١) المناسب أن يقول الآيات المتقدمة ، لأن أنواع العذاب ليست فى آية واحدة ، بل فى أكثر من آية . من أول قوله تعالى : ﴿ **مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ** ﴾ [إبراهيم : ١٦] .

(٢) التفسير الكبير ١٠ ، ١/١٠٦ . (٣) المصدر نفسه ١٠ ، ١/١٠٧ .

عناصرها مألوفة مأنوسة ، وقد لمس الدكتور أحمد بدوى هذه الحقيقة عندما قال : « أول ما يسترعى النظر من خصائص التشبيه فى القرآن أنه يستمد عناصره من الطبيعة ، وذلك هو سر خلوده ، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة ، وسر عمومه للناس جميعا ، يؤثر فيهم ؛ لأنهم يدركون عناصره ، ويرونها قريبة منهم ، وبين أيديهم ، فلا تجد فى القرآن تشبيها مصنوعا يدرك جماله فرد ، دون آخر ، ويتأثر به إنسان ، دون إنسان » (١) .

ومن هذا النوع من التشبيه قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ...** ﴾ [النور : ٣٩] .

وقد ذكر الإمام الرازى أن الله سبحانه وتعالى ضربه مثلا لخسران الكافر ، وخيبته فى الآخرة (٢) ثم بين وجه الشبه والطرفين فى هذا التشبيه قائلا : « ... وجه التشبيه أن الذى يأتى به الكافر ، إن كان من أفعال البر ، فهو لا يستحق عليه ثوابا ، مع أنه يعتقد أن له ثوابا عليه ، وإن كان من أفعال الإثم ، فهو يستحق عليه عقابا ، مع أنه يعتقد أنه يستحق عليه ثوابا ، فكيف كان ، فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى ، فإذا وَافَى عرصات (٣) القيامة ، ولم يجد الثواب ، بل وجد العقاب العظيم ، عظمت حسرته ، وتناهى غمه ، فيشبه حاله حال الظمآن الذى تشتد حاجته إلي الماء ، فإذا شاهد السراب ، تعلق قلبه به ، ويرجو به النجاة ، ويقوى طمعه ، فإذا جاءه وأيس مما كان يرجوه ، فيعظم ذلك عليه ... » (٤) .

وقد يبدو مستغربا ما ذكره أثناء كلامه السابق من أن الكفار كانوا يفعلون الإثم ، ويعتقدون أنهم يستحقون عليه ثوابا ، ولذلك بحثت فى تفسيره للآيات المناظرة للآية التى نحن بصددها . عما يدفع عن النفس هذا الاستغراب ، حتى

---

(١) من بلاغة القرآن ، للدكتور أحمد بدوى /١٩٦ .

(٢) ينظر التفسير الكبير ١٢ ، ٢/٧ .

(٣) لعله يقصد مواقف الحساب يوم القيامة . ينظر لسان العرب مادة (عرص) .

(٤) التفسير الكبير ١٢ / ٢/٧ .

وجدته قد ذكر عند تفسير آية (إبراهيم) التى أوردتها آنفا عدة وجوه في المراد بأعمال الكفار التى يبطلها الله تعالى ، منها :

« أن المراد منها ما عملوه من أعمال البر ، كالصدقة ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، وإطعام الجائع ، وذلك لأنها تصير محبطة باطلة بسبب كفرهم ، ولولا كفرهم ، لانتفعوا بها » [1] ومنها « أن المراد من تلك الأعمال عبادتهم للأصنام، وما تكلفوه من كفرهم الذى ظنوه إيمانا ، وطريقا إلي الخلاص ، والوجه فى خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم فيها الدهر الطويل ، لكى ينتفعوا بها ، فصارت وَبَالاً عليهم » [2] .

وذكر عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ...** ﴾ [آل عمران : ١١٧] .

أن الكفار كانوا ينفقون أموالهم فى إيذاء رسول الله ﷺ ، وقتل المسلمين، وتخريب ديارهم ، ويظنون أن هذه الأعمال من الخَيْرَات [3] ، وبهذا يظهر جليا أنهم كانوا يفعلون صنوف الإثم والعصيان ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ويتوقعون على ذلك ثواب الله ، وإكرامه .

ومن تشبيه المعقول بالمحسوس كذلك ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

ويفهم من شرحه لهذا التشبيه ، ومن تنظيره لهذه الآية بقوله تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ** ﴾ [إبراهيم : ١٨]

وغيرها أن التشبيه فى قوله تعالى : ﴿ **فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ من تشبيه المعقول بالمحسوس، يقول فى ذلك : « ... أما قوله : «إلى ما عملوا من عمل»،

---

(١) التفسير الكبير ١٠ ، ١٠٧/١ .

(٢) المصدر نفسه والموضع .

(٣) ينظر التفسير الكبير ٤ ، ٢١٣/٢ .

يعنى الأعمال التى اعتقدوها برًّا ، وظنوا أنها تقربهم إلى الله تعالى ، والمعنى إلي ما عملوا من أى عمل كان ، أما قوله : ﴿ **فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ فالمراد أبطلناه ، وجعلناه بحيث لا يمكن الانتفاع به ، كالهباء المنثور ، الذى لا يمكن القبض عليه، ونظيره قوله تعالى (كسراب بقيعة ...) (كرماد اشتدت به الريح ...) ﴿ **كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ** ﴾ [الفيل : ٥] (١) .

ويمكن إلقاء مزيد من الضوء على الطرفين فى هذا التشبيه فأقول : إن صورة أعمال الكفار ، المعبر عنها ، بالضمير المنصوب فى (جعلناه) التى كانوا يؤملون نفعها لهم فى الآخرة ، ثم وجدوها ضائعة شبهت بصورة شئ نافع مُدَّخَرٍ لوقت الحاجة ، عَدَتْ عليه العوادى ، فحطمته ، وذهبت به ، وصار غبارا يتراءى لهم فى الهواء ، لا يستطيع أحد الإمساك به ، أو الانتفاع بجزئياته .

ثالثًا : تشبيه المحسوس بالخيالى :

من تشبيه المحسوس بالخيالى ما ذكره عند قوله تعالى عن شجرة الزقوم : ﴿ **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴾ [الصافات : ٦٥] .

فقد قال عن هذا التشبيه : « ... وأما تشبيه هذا الطلع برءوس الشياطين ، ففيه سؤال ؛ لأنه قيل : إنا ما رأينا رءوس الشياطين ، فكيف يمكن تشبيه شئ بها؟ وأجابوا عنه من وجوه :

الأول : وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسيرة، واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح ، والتشويه فى الصورة ، والسيرة ، فكما حسن التشبيه بالْمَلَكِ عند إرادة تقرير الكمال والفضيلة فى قوله : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٣١] .

فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برءوس الشياطين فى القبح ، وتشويه الخلقة ، والحاصل أن هذا من باب التشبيه ، لا بالمحسوس ، بل بالمتخيل ، كأنه قيل : إن أقبح الأشياء فى الوهم والخيال هو رءوس الشياطين ، فهذه الشجرة

---

(١) التفسير الكبير ١٢ ، ٢/٧٢ .

تشبهها فى قبح المنظر [1] وتشويه الصورة ، والذى يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئا شَديدَ [2] الاضطراب ، منكر الصورة ، قبيح الخلقة ، قالوا : إنه شيطان، وإذا رأوا شيئا حسن الصورة ، والسيرة قالوا : إنه ملك ، وقال امرؤ القيس:

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال [3]

وأردف هذا القول بقولين آخرين قائلا :

والقول الثانى : أن الشياطين حيات لها رءوس ، وأعراف ، وهى من أقبح الحيات ، وبها يضرب المثل فى القبح ، والعرب إذا رأت منظرا قبيحا قالت : كأنه شيطان الحماطة ، والحماطة شجرة معينة .

والقول الثالث : أن رءوس الشياطين نبت معروف قبيح الرأس ، والوجه الأول هو الجواب الحق [4] .

وأبادر فأقول : إن التشبيه على القولين الأخيرين خارج عما نحن فيه ؛ لأنه يكون حينئذ من تشبيه المحسوس بالمحسوس .

ويلاحظ أنه فَضَّلَ الرأى الأول ، وقال عنه مرة : إنه الجواب الصحيح ، ومرة أخرى : إنه الجواب الحق ، ويظهر أن هذا الرأى كان قريبا إلى نفسه ، لصيقا بذهنه ؛ لأنه ذكره أيضًا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٣١] .

فقال فى أحد قولين له فى معنى هذه الآية : ... المشهور أن المقصود منه إثبات الحسن العظيم له – أى ليوسف عليه السلام – قالوا : لأنه تعالى ركز فى الطباع ألاحىّ أحسن من الملك ، كما ركز فيها ألاحىّ أقبح من الشيطان ؛

---

(١) فى التفسير: النظر ، وهو غير مناسب للسياق ، ولعله خطأ مطبعى ، والصواب ما أثبته وينظر الكشاف ٣/٣٠٢ .

(٢) فى التفسير (شديدا) بالتنوين ، والصواب حذف هذا التنوين للإضافة .

(٣) التفسير الكبير ١٣ – ٢/١٤٢ . (٤) المصدر نفسه والموضع .

ولذلك قال تعالى فى صفة جهنم [1] : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ وذلك . . . أنه تقرر فى الطباع أن أقبح الأشياء هو الشيطان ، فكذا ههنا تقرر فى الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك ، فلما أرادت النسوة المبالغة فى وصف يوسف عليه السلام بالحسن لا جرم شبهنه بالملك [2] .

* * *

حول رؤيته للتشبيه السابق

أَثَارَ حديثُه عن تشبيه طلع شجرة الزقوم برءوس الشياطين بعض القضايا الجديرة بالإيضاح ، والتفصيل :

أولاها : تأثره بالسابقين ، وإفادته منهم :

يبدو من مطلع حديثه عن هذا التشبيه أنه يحكى آراء غيره ، وهذا ظاهر من قوله : لأنه قيل : إنا ما رأينا رءوس الشياطين . . . وقوله : وأجابوا عنه من وجوه . . . مما يدل على أن القائل غيره ، والمجيب سواه ، فمن هذا القائل ؟ ومن هؤلاء المجيبون ؟ الواقع أن هذا التشبيه حظى بما لم يحظ به تشبيه آخر من عناية العلماء واهتمامهم ، حتى إنه يمكن القول بأنه أشهر تشبيهات القرآن الكريم ، أو أشهر التشبيهات على الإطلاق .

ولست هنا بصدد التأريخ لِمَا كتب عنه ، فذلك خروج عن مجال هذا البحث . ولكنى أود أن أسجل هنا كلام السابقين الذين ظهر تأثره بهم ، وترددت كلماتهم فى ثنايا كلامه ، وقد ذكر ثلاثة آراء فى رءوس الشياطين ، اختار الأول منها – كما سبق – وقد جاء فى كلام ابن قتيبة رأيان منها :

أحدهما : أن الشياطين حيات مناظرها قبيحة ، وأجسامها خفيفة ، تأوى

---

(١) ليست الآية فى صفة جهنم ، وإنما هى فى صفة شجرة الزقوم فى جهنم .

ولعله يقصد هذا المعنى ، ولكن عبارته غير وافية بالمراد ، وربما كان الكلام على حذف مضاف تقديره (فى صفة شجرة جهنم) .

(٢) التفسير الكبير ٩ ، ٢ / ١٣١ .

إلى شجر يقال له الحماط ، وذكر أن العرب تقول إذا رأت منظرا قبيحا : كأنه شيطان الحماط .

ثانيهما : أن المراد رءوس الشياطين بأعيانها ، شبه ثمر هذه الشجرة فى قبحه برءوسها ؛ لأنها موصوفة بالقبح ، ويظهر أنه كان يستبعد هذا الرأى ، كما يشعر بذلك تقديمه له بقوله : « وذهب بعض المفسرين ... »[1] .

وذكر ابن جرير الطبرى ثلاثة الآراء التى ذكرها الإمام الرازى بترتيبها ، دون أن يفضل أيا منها علي سواه ، يقول فى ذلك : « ... وأما فى تمثيله طلعها – أى شجرة الزقوم – برءوس الشياطين ، فأقول لكل منها وجه مفهوم :

أحدها : أن يكون مثل ذلك برءوس الشياطين على نحو ما قد جرى به استعمال المخاطبين بالآية بينهم ، وذلك أن استعمال الناس قد جرى بينهم فى مبالغاتهم إذا أراد أحدهم المبالغة فى تقبيح الشئ ، قال كأنه شيطان ، فذلك أحد الأقوال .

والثانى : أن يكون مثل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطانا ، وهى حية لها عرف فيما ذكر ، قبيح الوجه ، والمنظر .

والثالث : أن يكون مثل نبت معروف برءوس الشياطين ، ذكر أنه قبيح الرأس[2] .

وذكر الزمخشرى ثلاثة الآراء أيضا ، وقدم الرأى الذى اختاره الإمام الرازى مما يدل على أنه المفضل عنده ، وحكى الرأيين الآخرين بصيغة التمريض (قيل) التى تدل على ضعف المقول بعدها عادة يقول فى ذلك : وشبه – أى طلع شجرة الزقوم برءوس الشياطين ، دلالة على تناهيه فى الكراهية ، وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه ، مستقبح فى طباع الناس ؛ لاعتقادهم أنه شر محض ، لا يخلطه خير ، فيقولون فى القبيح الصورة كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان ،

---

(١) ينظر تأويل مشكل القرآن / ٣٨٨ – ٣٩٠ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، لمحمد بن جرير الطبرى ٢٣ / ٦٣ – ٦٤ .

وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر ، وأهوله ، كما أنهم اعتقدوا فى الملك أنه خير محض ، لا شر فيه ، فشبهوا به الصورة الحسنة قال الله تعالى : ﴿ **مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٣١] . وهذا تشبيه تخييلى ، وقيل : الشيطان حية عرفاء ، لها صورة قبيحة المنظر ، هائلة جدا ، وقيل : إن شجرا يقال له الأستن ، خشنا ، منتنا ، مرا ، منكر الصورة ، يسمى ثمره رءوس الشياطين ... »[١] .

وقد استوعب الإمام الرازى كلام السابقين ، وأضفى عليه من أسلوبه ، وبيانه ، ويكفيه أمانة أنه مقر بإفادته منهم ، وأخذه عنهم .

ثانيتها : هل فرق الإمام الرازى بين الوهمى والخيالى ؟

لاحظت أن الإمام الرازى وهو يتناول تشبيه طلع شجرة الزقوم برءوس الشياطين ردد كلمات الوهم ، والخيال ، والمتخيل ، فحملنى ذلك على تتبع كلامه حول التشبيه بالوهمى، والخيالى فى تفسيره ، وفى كتابه « نهاية الإيجاز ... » حتى أقف على رأيه ، إن كان قد فرق بينهما ، أو جعلهما بمعنى واحد ، وقد تبين لى أن له وجهتين :

إحداهما : فى تفسيره ، وقد بدا فيه أنه لا يفرق بينهما ؛ فقد صرح أن التشبيه برءوس الشياطين « من باب التشبيه لا بالمحسوس ، بل بالمتخيل » .

ولعله قد اقتفى أثر الزمخشرى الذي قال عن هذا التشبيه : « وهذا تشبيه تخييلى » – كما سبق قريبا – وقد تابع صاحب الكشاف على ذلك أيضًا بعضُ المفسرين[٢] .

ويبدوا أنهم جميعا لم يأبهوا بالفرق الضئيل بين الوهمى ، والخيالى ، فكلاهما لا وجود له في الخارج – كما سيجئ – .

---

(١) الكشاف ٣/٣٠٢ .

(٢) ينظر تفسير البيضاوى /٥٨٦ وتفسير أبي السعود ٤ ، ٧/١٩٤ .

ثانيتهما : فى كتابه « نهاية الإيجاز ... » وقد فرق فيه بينهما ، فأشار إلي أنهما قريبان ، وهذا اعتراف منه باختلافهما ، وتمايز كل منهما عن الآخر يقول وهو يتكلم عن تشبيه الموجود بالمتخيل الذى لا وجود له فى الأعيان :

« مثاله تشبيه الجمر الموقد ببحر من المسك ، مَوْجُهُ الذهب ، وتحقيق القول فيه أن المعدوم إنما يكون متخيلا ، إذا فرض المتخيل مجتمعا من أمور ، كل واحد منها موجود فى الأعيان ، ومتى كان كذلك ، كان التشبيه حسنا لطيفا ، وهو كتشبيه النرجس بمداهن دُرٍّ حشوهن عقيق [1] . وتشبيه الشقائق بأعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد [2] ، فإن النشر فى الياقوت ممتنع ، ومع ذلك فالتشبيه فى غاية الحسن ... وقريب من هذا الجنس قول امرئ القيس ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال [3] ، فإنهم وإن كانوا لم يشاهدوا أنياب الأغوال ، لكنهم لما اعتقدوا فيها غاية الحدة ، حسن التشبيه ، وعليه جاء قوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [4] .

فكونه قد جعل فى التفسير التشبيه برءوس الشياطين – تشبيها بالمتخيل ، على حين جعله فى « نهاية الإيجاز ... » قريبا منه – يدل على تفريقه بين الوهمى ، والخيالى ، فالخيالى – كما وضحه آنفا – اجزاؤه موجودة ومعلومة ، ولكن صورته التركيبية ليس لها وجود خارجى ، فلا يوجد بحر من المسك موجه الذهب ، ولا توجد أعلام من الياقوت تخفق فوق رماح من زبرجد ، ولكن المسك ، والذهب ، والياقوت ، والزبرجد ، أشياء موجودة يعرفها الناس ، والوهمى لا وجود لأجزائه ، ولا لصورته التركيبية فى عالم المحسوس ، كما يفهم من تمثيله له .

---

(١) يشير إلى قول الشاعر :

كأن عيون النرجس الغض حولنا مداهن در حشوهن عقيق

فن التشبيه ، للأستاذ على الجندى ٢ / ٢١٨ .

(٢) سيأتى هذا التشبيه بعد قليل .

(٣) سبق هذا البيت كاملا قبل قليل أثناء كلام الإمام الرازى فى التفسير .

(٤) نهاية الإيجاز / ٦١ – ٦٢ .

وهنا يلح على هذا التساؤل ، إذا كان الإمام الرازى قد ألف تفسيره بعد كتابه (نهاية الإيجاز . . .) كما يدل على ذلك قوله : « ومن تأمل كتابنا فى دلائل الإعجاز علم أن القرآن قد بلغ فى جميع وجوه الفصاحة إلي النهاية القصوى »(١) .

فأي الوجهتين اللتين ذكرهما تمثل رأيه البلاغى ؟

الذى يبدو لأول وهلة أن وجهته فى التفسير هى اللاحقة ، فينبغى أن تكون هى المعول عليها ، ولكنى أميل إلي أن وجهته الأخرى هى التى تمثل رأيه البلاغى؛ لأن التفاسير فى العادة ليست محلا لتحديد المصطلحات البلاغية ، وغيرها تحديدا كاملا .

ويبدو أن السكاكى قد تأثر به ، واستلهم تلك التفرقة بين الخيالى ، والوهمى ، عند ما ألحق الخيالى بالحسيات ، والوهمى بالعقليات (٢) .

وتبعه الخطيب القزوينى فى ذلك بشئ من التفصيل ، والتوضيح ، فقال : « والمراد بالحسى المدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمس الظاهرة ، فدخل فيه الخيالى ، كمال فى قوله :

وكأن محمر الشقيـ ـق إذا تصوب أو تصعد
أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد (٣)

---

(١) التفسير الكبير ١ ، ٢ / ١٧٢ .
عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة : ٢٣] .
وينظر (الإمام فخر الدين الرازى حياته وآثاره) للدكتور على محمد العمارى / ١٩٠ .
(٢) المفتاح / ١٥٨ .
(٣) محمر الشقيق : أراد شقائق النعمان ، وهو نَوْرٌ أحمر .
إذا تصوب : أى مال إلي أسفل . تصعد : ارتفع إلي أعلى .
ينظر لسان العرب المواد (شقق – صوب – صعد) .

ثم أضاف قائلا : « والمراد بالعقلى ما عدا ذلك ؛ فدخل فيه الوهمى ، وهو ما ليس مدركا بشئ من الحواس الخمس الظاهرة ، مع أنه لو أدرك ، لم يدرك إلا بها ، كما فى قول امرئ القيس : ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال .

وعليه قوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينُ ﴾ (١) .

ويظهر أن هذا الفرق بين الوهمى والخيالى الذى أشار إليه الإمام الرازى، فى كتابه (نهاية الإيجاز ...) قد ثبت، واستقر لدى البلاغيين، فلم يُضَف إليه جديد، يقول الدسوقى فى الفرق بينهما : « ... والحاصل أن الوهمى لا وجود لهيئته، ولا لجميع مادته، والخيالى مادته موجودة، دون هيئته » (٢) .

وفى ختام حديثى عن التشبيه برؤوس الشياطين أود أن أشير إلى أن هذا التشبيه يعتبر يتيما فى القرآن الكريم، لأنه لم يأت إلا فى آية (الصافات) وحدها .

إلا أننى بفضل الله وتوفيقه ظفرت بمثله فى البيان النبوى الشريف على صورة أخرى يُنَفِّرُ فيها رسول الله ﷺ المسلم من أن يكون شعث الرأس، مهملا فى نظافته، تاركا لحيته بعيدة البعض من البعض، دون إصلاح أو ترجيل، فقد جاء فى الموطأ أن عطاء بن يسار رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ فى المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده أن اخرج، كأنه يعنى إصلاح شعر رأسه ولحيته، ففعل الرجل ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ : « أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس، كأنه شيطان » (٣)؟ وهذا يؤكد ما ذكره الإمام الرازى وغيره من أنه تقرر فى طباع الناس أن الشيطان بلغ نهاية القبح والدمامة .

ولذلك أراد الرسول ﷺ أن يعلم هذا الرجل المسلم، ويعلم غيره من خلاله أن المسلم ينبغى أن يكون فى صورته فضلا عن سيرته ملكا، لا شيطانا .

---

(١) بغية الإيضاح ٣ /١٦ – ١٧ .

(٢) حاشية الدسوقى ٣ /٣١٨ شروح التلخيص .

(٣) الموطأ للإمام مالك / ٨١٥ .

التشبيه المفرق والمركب

قد يجتمع فى الكلام أكثر من تشبيه واحد، ويبقى كل تشبيه قائما بذاته، محتفظا بخصائصه، وقد أورد الإمام الرازى فى تفسيره قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطيـر رطبا ويابسا لدى وكرها العنابُ والحشف البالى

وأتبعه بقوله: فالتشبيه بالعناب للرطب وبالحشف البالى لليابس» [1] وهذا يدل على أن كلا من التشبيهين مستقل بنفسه، لا يربطه بالآخر إلا علاقة الاقتران، والمجاورة.

ولذلك جاء بهذا البيت فى كتابه (نهاية الإيجاز ...) على أن ما فيه من تشبيه يعد من قبيل التشبيهات المجموعة التى لا تعلق لبعضها ببعض ثم قال فى عقبه: «ولو فرقت التشبيه، فقلت كأن الرطب من القلوب عناب، وكأن اليابس حشف، لم تر أحد التشبيهين موقوفا فى الفائدة علىٰ الآخر، ونظيره فى جمع التشبيهات قول المتنبى:

بدت قمرا ومالت خوط بان وفاحت عنبرا ورنت غزالا

فهما تشبيهان كل واحد مستقل بنفسه، وليس بينهما امتزاج، فيحصل منه شئ واحد» [2].

وهو فى هذا متابع للشيخ عبد القاهر الجرجانى على قوله فى بيت امرئ القيس الذى سلف: «ولو أن اليابسة من القلوب، كانت مجموعة ناحية، والرطبة كذلك فى ناحية أخرى، لكان التشبيه بحاله، ولذلك لو فرقت التشبيه ههنا، فقلت: كأن الرطب من القلوب عناب، وكأن اليابس حشف بال، لم تر أحد التشبيهين موقوفا فى الفائدة علىٰ الآخر» [3].

---

(١) التفسير الكبير ٣ - ٢/٢٣ - عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ...﴾ [البقرة: ٢١٤].

(٢) نهاية الإيجاز / ٧٠.

(٣) أسرار البلاغة / ١٥٦.

وقد أبرز الشيخ عبد القاهر فضل هذا النوع من التشبيه، وفائدته، فقال: « ... إن ما كان من التركيب فى صورة بيت امرئ القيس فإنما يستحق الفضيلة، من حيث اختصار اللفظ، وحسن الترتيب فيه، لا لأن للجمع فائدة فى عين التشبيه ... » (١).

وقد يجتمع فى الكلام أكثر من مشبه، ومشبه به، ولا يكون المقصود من هذا الاجتماع تشبيه كل جزء فى المشبه، بما يقابله فى المشبه به، ولكن المقصود منه تشبيه الهيئة المنتزعة من مجموع أجزاء المشبه التى تداخلت، وامتزج بعضها ببعض، حتى صارت شيئا واحدا، بالهيئة المنتزعة من أجزاء المشبه به كذلك (٢) وهذا ما يعرف بالتشبيه المركب.

وقد شرح الإمام الرازى تشبيهات من هذا القبيل منها قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ... ﴾ [الجمعة: ٥]

ومما قاله فى هذا التشبيه « ... وقوله (حملوا التوراة) أى حملوا العمل بما فيها، وكلفوا القيام بها ... وقوله تعالى (لم يحملوها) أى لم يؤدوا حقها، ولم يحملوها حق حملها ... فشبههم، والتوراة فى أيديهم، وهم لا يعملون بها، بحمار يحمل كتبا، وليس له من ذلك إلا ثقل الحمل من غير انتفاع بما يحمله، كذلك اليهود، ليس لهم من كتابهم إلا وبال الحجة عليهم ... » (٣).

وواضح من كلامه أنه لم يجعل التشبيه بين اليهود، والحمار، والتوراة والأسفار، بل جعله بين الهيئة المنتزعة من عناصر المشبه: اليهود، والتوراة فى أيديهم، وهم لا يعملون بما فيها، – والهيئة المنتزعة من عناصر المشبه به: حمارا يحمل كتبا، لا يناله منها إلا ثقل الحمل، ووعثاء السير.

---

(١) المصدر نفسه/١٥٧.

(٢) ينظر – مثلا – المنهاج الواضح فى البلاغة، للأستاذ حامد عونى/٢٠.

(٣) التفسير الكبير ١٥ – ٢/٥.

ومما هو جدير بالذكر أنه أشار فى كتابه (نهاية الإيجاز ...) إلى أن التشبيه المركب [1] نوعان :

أحدهما : لا يتأتى فيه تفريق أجزائه ، وفض تركيبه، فلا يمكن فيه تشبيه كل جزء فى المشبه، بما يقابله فى المشبه به، يقول فى هذا النوع : « الأول قوله :

كأنما المريخ والمشترى ... قدامه فى شامخ الرفعه

منصرف بالليل عن دعوة ... قد أسرجت قدامه شمعه

فلو قلت : كأن المريخ منصرف بالليل عن دعوة، وتركت حديث المشترى، والشمعة، كان خلفا من القول، وذلك أن الشبه لم يكن للمريخ من حيث هو، ولكن من حيث الحالة الحاصلة له من كون المشترى أمامه، وأنت وإن كنت تقول : كأن المشترى شمعة على التشبيه العامى فى قولهم : كأن النجوم مصابيح، وشموع، فإن القائل لم يضع التشبيه على هذا، وإنما قصد الهيئة التى يكتسبها المريخ من كون المشترى أمامه، فإذاً الواو فى قوله : والمشترى، واو الحال، فهى كالصفة فى كونها تابعة، لا يمكن إفرادها بالذكر، بل تذكر فى ضمن الأولى على طريق التبعية » [2] .

ثانيهما : يتأتى فيه تفريق أجزائه، وفض تركيبه، ويمكن فيه تشبيه كل جزء من المشبه بما يقابله فى المشبه به، ولكن معناه يتغير، وجماله يتبدد، وصورته تضؤل، يقول فى هذا النوع :

« ومثال ما يمكن إفراده بالذكر، ويكون إذا أزيل التركيب، استوى التشبيه فى طرفيه إلا أن المعنى يتغير – قوله : –

وكأن أجرام النجوم طوالعا ... درر نثرن على بساط أزرق

---

(١) لاحظ الدكتور محمد جلال الذهبى أن الإمام الرازى لم يقسم الطرفين إلى مفرد، ومركب، ومتعدد استغناء بتقسيم وجه الشبه إلى هذه الأقسام ... ينظر الفخر الرازى والبلاغة العربية / ١٣٧، وينظر نهاية الإيجاز / ٦٦ وما بعدها.

(٢) نهاية الإيجاز / ٦٨ .

فإذا قلت: كأن النجوم درر، وكأن السماء بساط أزرق، وجدت التشبيه مقبولا، ولكن المقصود من التشبيه قد زال، لأن المقصود هناك ذكر الأمر العجيب من طلوع النجوم مؤتلفة [1] مفرقة فى أديم السماء وهى زرقاء زرقتها الصافية، والنجوم تتلألأ أثناء تلك الزرقة، ومعلوم أن هذا المقصود لا يبقى إذا فرق التشبيه» [2].

ومعظم كلام الإمام الرازى حول نوعى التشبيه المركب مأخوذ من كلام الشيخ عبد القاهر فيهما [3].

وقد حرص كل منهما على أن يؤكد أن التشبيه المركب، وإن أمكن تفريقه فى أحد نوعيه - كما سبق - إلا أنه حينئذ يضيع أثره فى النفس، لأن المقصود منه هو الهيئة التركيبية التى تملأ النفوس إعجابا، وتقرى العين جمالا، ولذلك علق الشيخ ببيانه الساحر الخلاب على تشبيه النجوم المتلألئة على صفحة السماء الزرقاء، بالدرر المنثورة على بساط أزرق قائلا:

«.. فأنت وإن كنت إذا قلت: كأن النجوم درر، وكأن السماء بساط أزرق، وجدت التشبيه مقبولا معتادا، مع التفريق، فإنك تعلم بعد ما بين الحالتين - حالتى تفريق المركب وبقائه كما هو - ومقدار الإحسان الذى يذهب من البين، وذلك أن المقصود من التشبيه أن يريك الهيئة التى تملأ النواظر عجبا، وتستوقف العيون، وتستنطق القلوب بذكر الله تعالى، من طلوع النجوم مؤتلقة، مفترقة فى أديم السماء، وهى زرقاء، وزرقتها الصافية التى تخدع العين، والنجوم تتلألأ،

---

(١) المناسب (مؤتلقة) بالقاف، لأنها المناسبة للسياق، وقد جاء فى أسرار البلاغة (... طلوع النجوم مؤتلقة) بالقاف/ ١٥٧ ولعل الفاء فى كلام الإمام الرازى تصحيف.

(٢) نهاية الإيجاز/٦٨. (٣) أسرار البلاغة ١٥٧ - ١٥٩.

وتبرق فى أثناء تلك الزرقة، ومن لك بهذه الصورة إذا فرقت التشبيه، وأزلت عنه الجمع، والتركيب ...؟»[1].

وتفضيل الصورة التركيبية على تفريق التشبيه، وتقطيعه أجزاء مستقلة بأنفسها - يكاد يكون محل إجماع من البلاغيين [2].

ولن أستطرد فى ذكر كلا مهم، فحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق.

* * *

(١) المصدر نفسه/١٥٧.

(٢) مثلا ينظر: المفتاح/١٦٠، وبغية الإيضاح ٣/٥٢ - ٥٤، والأطول، للعصام ٢/٩٦ - ٩٧.

موقفه فى التفسير من التشبيه
المركب والمفرق

تبين لنا فيما تقدم أن هناك نوعين من التشبيهات المجتمعة:

أحدهما: أن يكون فى الكلام أكثر من تشبيه، وكل منها مستقل بذاته، لا تعلق له بما يجاوره، ويقترن به، كما فى قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ... (البيت)

وهذا النوع جلاّه الإمام الرازى، ووضح معالمه وسماته – وقد سبق بيانه قريبا وهو جدير بأن يوسم بأنه مفرق، لعدم التداخل بين تشبيهاته.

ثانيهما: أن يكون فى الكلام أكثر من مشبه، ومشبه به، ولا يقصد أن تكون هذه التشبيهات فرادى، يختص فيها كل مشبه، بمشبه به، ولكن المقصود تشبيه الهيئة المنتزعة من مجموع المشبهات، بالهيئة المنتزعة من مجموع المشبهات بها، وهذا النوع هو المعروف بالتشبيه المركب.

وقد يتأتى – كما سلف قريبا – فى أحد شقيه أن تفرق أجزاؤه، فيشبه كل جزء بما يقابله، ولكنه يفقد جماله وبهاءه، وسحره ورونقه. وقد عرض الإمام الرازى لذلك التشبيه فى عدة مواضع من تفسيره، فقد نقل عن صاحب الكشاف أن التشبيه فى قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣١] – يمكن أن يكون مفرقا أو مركبا يقول فى ذلك: « ... فبين تعالى مثلين للكفر لا مزيد عليهما فى بيان أن الكافر ضار بنفسه، غير منتفع بها وهو قوله: (ومن يشرك بالله ...) قال صاحب الكشاف: إن كان هذا تشبيها مركبا، فكأنه قيل: من أشرك بالله، فقد أهلك نفسه إهلاكا، ليس وراءه هلاك، بأن صور حاله بصورة

حال مَنْ خَرَّ من السماء، فاختطفته الطير، فتفرقت أجزاؤه فى حواصلها، أو عصفت به الريح، حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة، وإن كان تشبيها مفرقا، فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء، والذى ترك الإيمان، وأشرك بالله كالساقط من السماء، والأهواء التى تتوزع أفكاره، بالطير المختطفة، والشيطان الذى يطرحه فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة» (١).

وقد لاحظت أنه وإن صرح بأخذ كلامه السابق عن صاحب الكشاف – لم يأخذه بنصه بل تصرف فيه بما لم يغير من معناه شيئًا.

وكذلك لاحظت أن كلا منهما لم يرجح كون هذا التشبيه مفرقا أو مركبًا فى هذا الموضع.

وعرض الإمام الرازى لهذا النوع من التشبيه عند تفسير قوله تعالى: ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٩]

فبعد أن أفاض فى بيان كيفية المشابهة فى هذا المثل، أورد عدة أسئلة منها قوله: «المشبه بالصيب والظلمات والرعد والبرق والصواعق ما هو؟» (٢) وأجاب قائلا: «لعلماء البيان ههنا قولان:

أحدهما: أن هذا تشبيه مفرق، ومعناه أن يكون المثل – أى المشبه به – (٣) مركبا من أمور، والممثل يكون أيضا مركبا منْ أمور، ويكون كل واحد من المثل شبيها بكل واحد من الممثل، فههنا شبه دين الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياه الأرض بالمطر، وما يتعلق به من شبهات الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد، بالبرق والرعد، وما يصيب الكفرة من الفتن من جهة

---

(١) التفسير الكبير ١٢ – ١/٣٣، وينظر الكشاف ٣/٣١، ٣٢.

(٢) التفسير الكبير ١ – ٢/٨٦.

(٣) أحيانا يطلق على المشبه به (مثلا) ومن ذلك ما أشار إليه عند قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا**﴾ [النحل: ٩٢] ينظر التفسير الكبير ١٠ – ٢/١١٠.

أهل الإسلام بالصواعق، والمعنى: أو كمثل ذوى صيب، والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة.

والقول الثانى: أنه تشبيه مركب، وهو الذى يشبه فيه إحدى الجملتين بالأخرى فى أمر من الأمور، وإن لم تكن آحاد إحدى الجملتين شبيهة بآحاد الأخرى وههنا المقصود تشبيه حيرة المنافقين فى الدنيا والدين بحيرة من انطفت ناره، (١) بعد إيقادها (٢) وبحيرة من أخذته السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق» (٣).

وواضح من حديثه فى هذا الموضع أنه ذكر قولى علماء البيان فى إمكان جعل هذا التشبيه مفرقا، أو مركبا، دون أن يشير إلى أفضلية أحد القولين على الآخر وقد رجعت إلى ما كتبه صاحب الكشاف حول هذا التشبيه، فوجدته قد صرح بأنه يمكن أن يكون مفرقا، ولكن الصحيح عند علماء البيان أنه مركب.

فقد قال: «... فإن قلت: قد شبه المنافق فى التمثيل الأول بالمستوقد نارا، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، فماذا شبه فى التمثيل الثانى بالصيب وبالظلمات وبالرعد وبالبرق، وبالصواعق؟ قلت: لقائل أن يقول: شبه دين الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد، بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزاع، والبلايا، والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق، والمعنى: أو كمثل ذوى صيب، والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة، فلقوا منها ما لقوا ...» (٤).

---

(١) يبدو أن هذه الكلمة (انطفأت ...) بهمزة مفتوحة بعد الفاء، فقد جاء فى لسان العرب طفئت النار ... وانطفأت .... مادة (طفأ).

(٢) يقصد التشبيه فى قوله تعالى قبل الآية التى نحن بصددها مباشرة: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ**﴾ [البقرة: ١٧]

(٣) التفسير الكبير ١، ٢/٨٦.

(٤) الكشاف ١/٤٠.

ثم أضاف قائلا: « .. والصحيح الذى عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة ... وهو القول الفحل، والمذهب الجزل » [1] وتصريح الزمخشرى – رحمه الله – وهو فى أوائل تفسيره بأن مثل هذا التشبيه من التشبيهات المركبة، لا المفرقة، يمثل رأيه فى هذا النوع من التشبيه، ويعتبر مغنيا عن إعادته فى المواضع المناظرة خلال تفسيره.

ويقول الإمام الرازى فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ** ﴾ [آل عمران: ١١٧] « المثل الشبه الذى يصير كالعلم، لكثرة استعماله فيما يشبه به، وحاصل الكلام أن كفرهم يبطل ثواب نفقتهم، كما أن الريح الباردة تهلك الزرع. فإن قيل: فعلى هذا التقدير مثل إنفاقهم هو الحرث الذى هلك، فكيف شبه الإنفاق بالريح الباردة المهلكة؟ قلنا: المثل قسمان منه ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين، وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين، وهذا هو المسمى بالتشبيه المركب، ومنه ما حصلت المشابهة فيه بين المقصود من الجملتين، وبين أجزاء كل واحدة منهما، فإذا جعلنا هذا المثل من القسم الأول، زال السؤال وإن جعلناه من القسم الثانى ففيه وجوه » [2] ثم بين هذه الوجوه قائلا:

الأول: أن يكون التقدير مثل الكفر فى إهلاك ما ينفقون كمثل الريح المهلكة للحرث.

الثانى: مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح، وهو الحرث.

الثالث: لعل الإشارة فى قوله: مثل ما ينفقون إلى ما أنفقوا فى إيذاء رسول الله ﷺ فى جمع العساكر عليه، وكان هذا الإنفاق مهلكا لجميع ما أتوا به من

---

(١) المصدر نفسه والموضع.

(٢) التفسير الكبير ٤ – ٢/ ٢١١ – ٢١٢.

أعمال الخير، والبر، وحينئذ يستقيم التشبيه من غير حاجة إلى إضمار، وتقديم وتأخير، والتقدير: مثل ينفقون فى كونه مبطلا لما أتوا به قبل ذلك من أعمال البر، كمثل ريح فيها صر، فى كونها مبطلة للحرث، وهذا الوجه خطر ببالى عند كتابتى على هذا الموضع، فإن إنفاقهم فى إيذاء الرسول ﷺ من أعظم أنواع الكفر، ومن أشدها تأثيرا فى إبطال آثار أعمال البر» (١).

وواضح من حديثه عن هذا التشبيه فى الآية أنه يمكن أن يكون مركبا، فلا يحتاج إلى تقدير محذوف، ويمكن أن يكون مفرقا، يحتاج إلى تقدير محذوف، أو لا يحتاج وله ثلاثة وجوه:

الأول: أن يقدر محذوف قبل المشبه، ويكون تقديره: مثل الكفر فى إهلاك ما ينفقون كمثل الريح المهلكة للحرث.

الثانى: أن يقدر محذوف قبل المشبه به تقديره مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح، وهو الحرث.

وهذان الوجهان بالإضافة إلى القول بالتركيب كلها فى الكشاف مع اختلاف فى بعض الكلمات يقول صاحب الكشاف: «... فإن قلت: الغرض تشبيه ما أنفقوا فى قلة جدواه، وضياعه بالحرث الذى ضربته الصِّرُّ، والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ما ينفقون ممثلا بالريح قلت: هو من التشبيه المركب الذى مَرَّ فى تفسير قوله: ﴿... **كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا**﴾ [البقرة: ١٧] (٢) ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك الريح، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث» (٣).

الثالث: أن يكون المشبه (ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا) والمشبه به (كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته).

---

(١) المصدر نفسه ٤ - ٢/٢١٢.

(٢) ينظر الكشاف ١/٤٠.

(٣) الكشاف/ ١/٢١٢.

ولا تقدير فى الكلام، لأن ما ينفقونه فى إيذاء رسول الله ﷺ، ومحاربته أبطل أعمالهم كالريح التى أهلكت الحرث، وقد أعقب هذا الوجه بأنه خطر بباله، فهو من بنات أفكاره، وليس متأثرا فيه بغيره.

وقد عنّت لى بعض التعليقات حول حديثه عن التشبيهات الآنفة الذكر، لعل من المفيد إبداءها:

أحدها: أنه قد يوهم قوله عن التشبيه المركب، عند تفسير آية البقرة التى سبقت: (هو الذى يشبه فيه إحدى الجملتين بالأخرى فى أمر من الأمور، وإن لم تكن آحاد إحدى الجملتين شبيهة بآحاد الأخرى).

وقوله عنه أيضا عند تفسير آية آل عمران: إنه: (ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين، وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين) قد يوهم ذلك أن كلا من المشبه، والمشبه به فى التشبيه المركب جملة اصطلاحية، سواء اشتملت على قيود أو خلت منها والذى يتبدى لى أنه لا يقصد من الجملة معناها الاصطلاحى عند النحاة، لأن المشبه – مثلا – فى قول الشاعر:

وكأن أجرام النجوم طوالعا درر نثرن على بساط أزرق

جزء جملة، أعنى (أجرام النجوم طوالعا) لأن الجملة لا تتم إلا بذكر الخبر، والمشبه به أيضا وهو (درر نثرن على بساط أزرق) جزء جملة كذلك، لأن الخبر لا يستقل بالفائدة. والمشبه به مثلا فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ...**﴾

[يونس: ٢٤]

جمل كثيرة وإنما يقصد من الجملة معناها اللغوى، أى مجموع الكلام الذى يشمل المشبه، ومجموع الكلام الذى يشمل المشبه به، ويؤيد ما فهمته أنه جاء

فى لسان العرب: والجملة واحدة الجمل، والجملة جماعة الشئ، وأجمل الشئ جمعه عن تفرقة [1].

وجاء فى أساس البلاغة: أخذ الشئ جملة [2].

وقد يقال: إن كلامه عن التشبيه فى الآيتين فحسب، وليس على إطلاقه، حتى يشعر بهذا الإيهام.

وأقول: إنه يمكن الإجابة عن ذلك بأن المشبه به – مثلا – فى آية آل عمران عدة جمل وهى: (... كمثل ريح، فيها صر، أصابت حرث قوم، ظلموا أنفسهم، فأهلكته) وليس جملة واحدة.

ثانيها: أنه جعل التشبيه المفرق فى المواضع الثلاثة التى سلفت قسيما للمركب، ومقابلا له، ولم يعلق، أو يعقب، ولو على موضع واحد منها بما يدل على أن المفرق أحد قسمى المركب، أو أن صورة التشبيه مركبا أفضل من تفريقه، وأوقع فى النفس.

وكأنه يرى أن المفرق فى تلك المواضع وأمثالها مغاير للمركب، ومباين له، أسوة بالمفرق المفرد الذى تستقل تشبيهاته، ولا تتداخل، كما فى بيت امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

وشتان ما بينهما.

وقد علمنا قبلا أنه ذكر فى (نهاية الإيجاز ...) تبعا للشيخ عبد القاهر أن المركب منه مالا يتأتى تفريقه، ومنه ما يتأتى تفريقه، وحينئذ يضعف أثره، وتقل قيمته فى النفس. ولذلك قال الدكتور محمد جلال الذهبى تعقيبا على قول الإمام الرازى عند تفسير آية آل عمران: "... المثل قسمان منه ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين، وإن

---

(١) مادة (جمل). (٢) المادة نفسها.

لـم تحـصل المشـابهـة بـين أجـزاء الجـملتـين، وهـذا هـو المسـمـى بـالتـشـبـيـه المـركـب . . . » [1].

قـال: « . . . ونـلاحظ على كـلامـه هنا . . . اضطرابا، وذلك لأنه خص المركب بمـا حصلـت فيـه المشابهـة بـين المقصـود مـن الجـملتـين، وإن لم تحصل بـين الأجزاء، وهـذا ليـس سـديـدا، لأن المركـب شـامـل للقسـمين وهما نوعان له . . . »[2].

وقد ذكـر العلامـة سعـد الديـن التفتـازانى فى حاشيته على الكشاف أنه قد يتـوهـم أن التـشبـيـه فى الآية عند تفريقـه يكون من تشبيه المفرد بالمفرد، وليس بـذاك لأن المثـل عبـارة عن الحـال والقـصـة، فـيكون من تشبـيـه المركب بالمركب [3].

وأضيف إلى ذلك أنه لو جعل التشبيه مثلا فى آية آل عمران مفرقا وصار تقـديره كـأن الكفـر ريح، وكـأن مـا ينفـقـه الكفـار حـرث، لـم يكـن شـيـئـا، لأن المقـصـود – والله أعلم – تصوير حالة الكفر الذى يبطل أعـمـال هؤلاء الكفـار، وإنفـاقـهم بحالة الريح البـاردة التى تـهلك الحـرث، ولا شك أن الصورة التـركـيـبـيـة أوقع فى النفس.

وإذا كـان البـلاغيـون قد رأوا أن التـشـبـيـه المركـب فى كلام الناس، عندما يفض تركيبه، ويشبه كل جزء فى المشبه بما يقابله فى المشبه به، يتغير معناه، وينزل إلى منزلة دون منزلته، فإننى أربأ بالتشبيه المركب فى النظم القرآنى الجليل، وهو كلام الله المعجز أن يعتبر مفرقا، حتى يبقى فى ذروته العالية من البلاغة والبيان.

وقـد يحـسـن هنـا أن أشيـر إلى أن الإمـام الـرازى، وإن اعـتـمـد كـثـيـرا

---

(١) التفسير الكبير ٤ – ٢ / ٢١٢.

(٢) الفخر الرازى والبلاغة العربية ١٣٤.

(٣) نقلا عن حاشية قطب الدين التحتانى على الكشاف، دراسة وتحقيق للأستاذ الدكتور إبراهيم طه الجعلى ٢ / ٥٩٧ (بتصرف).

على كلمات صاحب الكشاف وآرائه البيانية فى التشبيهات الثلاثة التى مضت، إلا أن عبارته أحيانا تفوق عبارة صاحب الكشاف فى تحريرها ودقتها.

فقد وافقه على قوله مقدرا المحذوف فى آية آل عمران التى سبقت: (مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح) [1] ونقله عنه بنصه.

ولكنه عدل عن تقديره الآخر وهو (مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك الريح) [2].

وذكر بدلا منه قوله: (مثل الكفر فى إهلاك ما ينفقون كمثل الريح المهلكة للحرث) [3].

فقابل بين الكفر الذى أهلك ما ينفقون، وبين الريح التى أهلكت الحرث.

ويظهر أن المقابلة فى التقدير الذى تركه لم تنل رضاه، لأن الزمخشرى قابل فيها بين إهلاك ما ينفق، وهو مفعول به، وبين إهلاك الريح وهى فاعلة.

ولذلك عاب ابن المنير الإسكندرى المقابلة فى عبارة الكشاف التى ضرب عنها الإمام الرازى صفحا فقال: « ... ثم نعود إلى جواب الزمخشرى ... وهو قوله: إن المراد مثل إهلاك ما ينفقون، فنقول: لم يكشف الغطاء بهذا الجواب عن المطابقة ... وذلك أن الريح المشبه بها ليست الإهلاك، وإنما هى المهلكة، ولا مطابقة بين المصدر، والاسم إلا بتأويل آخر، وحينئذ يبعد هذا الوجه، وأقرب منه أن يقول: أصل الكلام والله أعلم مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته ... [4].

---

(١) الكشاف ١/٢١٢، والتفسير الكبير ٤ - ٢/٢١٢.

(٢) الكشاف ١/٢١٢. (٣) التفسير الكبير ٤ - ٢/٢١٢.

(٤) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ١/٢١٢ مع الكشاف.

وواضح أنه جعل المقابلة فى التشبيه بين ما ينفق، وبين الحرث، وهما مفعولان خلافا للإمام الرازى الذى جعلها بين الكفر، والريح وهما فاعلان والتلاؤم على كلا التقديرين واضح لا غبار عليه.

القيد فى التشبيه وأثره:

لعل من المفيد عقب الكلام عن التشبيه فى آية آل عمران أن أشير إلى فائدة قوله تعالى: (... ظلموا أنفسهم ...) فى التشبيه، مع أنه ليس من عناصره الأساسية، وكان حق هذا الكلام أن يكتب فى وجه الشبه، ولكنى آثرت أن أجعله هنا، ليكون الحديث عن التشبيه فى الآية موصولا.

فقد أورد الإمام الرازى سؤالا عن فائدة هذا القيد فى التشبيه، وبين أن وجوده يؤكد استئصال الحرث، وإهلاكه عن آخره، وكأن هذه الريح موجهه لتدميره، جزاء وفاقا على ظلمهم يقول فى ذلك: « ... ثم قال تعالى: (أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم) وفيه سؤال، وهو أنه يقال: لِمَ لَمْ يقتصر على قوله: (أصابت حرث قوم) وما الفائدة فى قوله: (ظلموا أنفسهم)؟

قلنا: فى تفسير قوله: (ظلموا أنفسهم) وجهان:

الأول: أنهم عصوا الله، فاستحقوا هلاك حرثهم عقوبة لهم، والفائدة فى ذكره هى أن الغرض تشبيه ما ينفقون بشئ يذهب بالكلية، حتى لا يبقى منه شئ، وحرث الكافرين الظالمين هو الذى يذهب بالكلية، ولا يحصل منه منفعة، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، فأما حرث المسلم المؤمن، فلا يذهب بالكلية، لأنه وإن كان يذهب صورة، فلا يذهب معنى، لأن الله تعالى يزيد فى ثوابه، لأجل وصول تلك الأحزان إليه.

والثانى: أن يكون المراد من قوله: (ظلموا أنفسهم) هو أنهم زرعوا فى غير موضع الزرع، أو فى غير وقته، لأن الظلم وضع الشئ فى غير موضعه، وعلى

هذا التفسير يتأكد وجه التشبيه، فإن من زرع لا فى موضعه، ولا فى وقته يضيع، ثم إذا أصابته الريح الباردة، كان أولى بأن يصير ضائعا، فكذا ههنا، الكفار لما أتوا بالإنفاق، لا فى موضعه، ولا فى وقته، ثم أصابه شؤم كفرهم، امتنع ألا يصير ضائعا والله أعلم» (١).

وهذا الكلام عن فائدة هذا القيد فى التشبيه يعتبر لفته كريمة تسجل له بالثناء الجميل وإن كنت أرى أنه كان ينبغى أن يجعل هذا القيد مبتدأ بقوله تعالى: (... قوم ظلموا أنفسهم) بدلا من (ظلموا أنفسهم) فحسب، لأنه يمكن أن يقال فى غير القرآن: ... ريح أصابت حرثا فأهلكته، ويكون التشبيه تاما، دون ذكر (قوم).

وواضح أن وجه الشبه فى الآية ليس مأخوذا من الريح التى أهلكت حرثا منكورا مجهولا، بل مأخوذ من إهلاكها حرثا مخصوصا يراد القضاء عليه، لأنه حرث قوم ظالمين، فتكون حسرة إهلاكه فى قلوبهم عظيمة.

وقد لام الدكتور محمد جلال الذهبى الإمام الرازى، لأنه شغل بتعديد أنواع القيد عن بيان أثر القيد فى التشبيه، فقال: «ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن انشغال الرازى بسرد أنواع القيد، قد أنساه التعرض لمسألة هامة ... وهى أثر القيد فى الشبه، وهذه تناولها الشيخ عبد القاهر، فكانت فى عداد حسناته، إذ بين أن الأشياء المقيدة إذا قطعت عن القيد، أفادت معنى، وإذا قيدت أفادت معنى غيره، فمثلا القبض فائدته بقاء الشئ فى اليد، وبتعديته إلى الماء يفيد عدم بقاء شئ فيها» (٢).

ولعله يقصد أنه لم يعرض لأثر القيد فى التشبيه فى كتابه (نهاية الإيجاز ...) أما فى التفسير فما أوردته من كلامه آنفا خير شاهد على أنه لم ينس أثر القيد فى التشبيه.

* * *

---

(١) التفسير الكبير ٤ - ٢ / ٢١٤. (٢) الفخر الرازى والبلاغة العربية ١٣٣.

وجـه الشبه

من المعلوم أن وجه الشبه هو: المعنى الذى يشترك فيه الطرفان [1] .

هل يكون وجه الشبه فى كل الأمور ؟ :

ذكر الإمام الرازى فى كتابه (نهاية الإيجاز ...) أن « المشابهة إما أن تكون فى أمر واحد ، أو فى أمور كثيرة ... » [2] .

أما فى تفسيره ، فلم يكن رأيه فى هذه القضية قاطعا ، فقد ذكر فى أكثر من موضع أن وجه الشبه يكون فى بعض الأمور المشتركة بين الطرفين ، لا فى جميعها .

وقد بنى على هذه المقولة البلاغية ترجيحه لبعض الآراء الشرعية على بعض، فقد اختار أن يكون تشبيه صيام المسلمين فى شهر رمضان بصيام الأمم السابقة فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

فى فرضية الصيام ، وإيجابه ، لا فى وقته ومقداره ؛ لأنه لا يلزم من تشبيه الشئ بالشئ أن يكونا مستويين فى كل الأمور ، يقول فى ذلك : « ... أما قوله تعالى : ﴿ **... كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ...** ﴾ ففيه مسألتان : المسألة الأولى فى هذا التشبيه قولان : **أحدهما** : أنه عائد إلى أصل إيجاب الصوم ، يعنى هذه العبادة كانت مكتوبة واجبة على الأنبياء ، والأمم من لدن آدم إلي عهدكم ، ما أخلى الله أمة من إيجابها عليهم ، لا يفرضها عليكم وحدكم ، وفائدة هذا الكلام أن الصوم عبادة شاقة ، والشئ الشاق إذا عم سهل تحمله ، **والقول الثانى** : أن التشبيه يعود إلى وقت الصوم ، وإلى قدره ، وهذا ضعيف ؛ لأن تشبيه

---

(١) ينظر بغية الإيضاح ٣ / ١٧ .

(٢) نهاية الإيجاز ... / ٦٦ .

الشئ بالشئ يقتضى استواءهما فى أمر من الأمور ، فأما أن يقال : إنه يقتضى الاستواء فى كل الأمور، فلا . . . . »[1] .

ويقول بعض المفسرين مثل قوله فى التشبيه نفسه : « . . فقوله: ﴿ **كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ تشبيه فى أصل فرض ماهية الصوم ، لا فى الكيفيات ، والتشبيه يكتفى فيه ببعض وجوه المشابهة ، وهو وجه الشبه المراد فى القصد »[2] .

ويقول الإمام الرازى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم** ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وقوله : ﴿ **إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم** ﴾ قال الفراء يقال : إن كل صنف من البهائم أمة . وجاء فى الحديث (لولا أن الكلاب أمة من الأمم ، لأمرت بقتلها) فجعل الكلاب أمة ، إذا ثبت هذا ، فنقول : الآية دلت على أن هذه الدواب ، والطيور أمثالنا ، وليس فيها ما يدل على أن هذه المماثلة فى أي المعانى حصلت ، ولا يمكن أن يقال : المراد حصول المماثلة من كل الوجوه ، وإلا لكان يجب كونها أمثالا لنا فى الصورة ، والصفة ، والخلقة ، وذلك باطل ، فظهر أنه لا دلالة فى الآية على أن تلك المماثلة حصلت فى أي الأحوال ، والأمور ، فبينوا ذلك ، والجواب : اختلف الناس فى تعيين الأمر الذى حكم الله تعالى فيه بالمماثلة بين البشر ، وبين الدواب، والطيور . .[3] .

فقوله : (ولا يمكن أن يقال المراد حصول المماثلة من كل الوجوه . . . صريح فى أن وجه الشبه لا يكون فى جميع الأمور بين الطرفين ، وإنما يكون فى أمر واحد ، أو أكثر .

ولذلك ذكر بعض الأقوال فى وجه المماثلة بين البشر ، وبين الدواب ، والطيور منها :

---

(١) التفسير الكبير ٣ ، ١ / ٧٤ – ٧٥ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٢ / ١٥٢ .

(٣) التفسير الكبير ٦ ، ٢ / ٢٢٣ .

١- أن هذه المماثلة فى كونهم يعرفون الله ، ويوحدونه ، ويسبحونه ، ويحمدونه ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

٢- أو في كونها أمما ، وجماعات ، يشبه بعضها بعضا .

٣- أو فى أن الله دبر أمرها ، وتكفل برزقها ...

٤- أو فى أنها تحشر يوم القيامة ، ليقتص لبعضها من بعض ... (١) .

وذكر الإمام الرازى عند قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ [المجادلة : ٢]

أن تشبيه الشئ بالشئ لا يقتضى المشابهة بينهما من كل الوجوه ، فقد أورد فى تفسير الآية إشكالا « وهو أن من قال لامرأته : أنت علىَّ كظهر أمى ، فهو شبه الزوجة بالأم ، ولم يقل : إنها أم ، فكيف يليق أن يقال على سبيل الإبطال لقوله : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ ؟ وكيف يليق أن يقال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ ؟ (٢) .

وأجاب عن هذا الإشكال قائلا : « ... والجواب أن (٣) الكذب إنما لزم ؛ لأن قوله : أنت على كظهر أمى ، إما أن يجعله إخبارا أو إنشاء ، وعلى التقرير الأول أنه كذب ؛ لأن الزوجة محللة ، والأم محرمة ، وتشبيه المحللة بالمحرمة فى وصف الحل ، والحرمة كذب ، وإن جعلناه إنشاء ، كان ذلك أيضًا كذبا ؛ لأن كونه إنشاء معناه أن الشرع جعله سببا فى حصول الحرمة ، فلما لم يرد الشرع بهذا التشبيه ، كان جعله إنشاء فى وقوع هذا الحكم ، يكون كذبا وزورا » (٤) .

ثم حكى عن بعضهم جوابا آخر فقال : « ... وقال بعضهم : إنه تعالى إنما

---

(١) ينظر المصدر نفسه ٦ ، ٢/ ٢٢٤ . (٢) التفسير الكبير ١٥ ، ١/ ٢٥٥ .

(٣) فى التفسير (أما) بدلا من أن ، والصواب ما أثبته ؛ لأنه المناسب للسياق ، وينظر التفسير الكبير ٨/ ١١١ ط المطبعة الخيرية .

(٤) التفسير الكبير ١٥ ، ١/ ٢٥٥ .

وصفه بكونه ﴿ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ لأن الأم محرمة تحريما مؤبدا ، والزوجة لا تحرم عليه بهذا القول تحريما مؤبدا ، فلا جرم كان ذلك منكرا من القول وزورا ، وهذا الوجه ضعيف ؛ لأن تشبيه الشئ بالشئ لا يقتضى وقوع المشابهة بينهما من كل الوجوه ، فلا يلزم من تشبيه الزوجة بالأم فى الحرمة تشبيهها بها فى كون الحرمة مؤبدة ؛ لأن مسمّى الحرمة أعم من الحرمة المؤبدة، والمؤقتة »[1] .

وهكذا نجده يقرر فى المواضع السابقة بوضوح ، وجلاء أن وجه الشبه ، لا يكون فى جميع الأمور ، بل يكون فى بعضها ، قَلَّ ذلك البعض ، أو كثر .

ولكنه ذكر فى بعض المواضع ما يشعر أن وجه الشبه يكون فى كل الأمور ، فقد قال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

« فى الآية سؤال وهو أنه لِمَ لَمْ يقل : إنما الربا مثل البيع ؟ وذلك ؛ لأن حل البيع متفق عليه ، فهم أرادوا أن يقيسوا عليه الربا ، ومن حق القياس أن يشبه محل الخلاف بمحل الوفاق ، فكان نظم الآية أن يقال : إنما الربا مثل البيع ، فما الحكمة فى أن قلب هذه القضية فقال : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ والجواب أنه لم يكن مقصود القوم أن يتمسكوا بنظم القياس ، بل كان غرضهم أن الربا والبيع متماثلان من جميع الوجوه المطلوبة ... »[2] .

فعبارته الأخيرة تدل على أن المشبه ، والمشبه به ، متماثلان فى جميع الوجوه المطلوبة ، وإن كان ذلك فى منظور آكلى الربا ، ومستحليه .

وذكر عند تفسير قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴾

[المائدة : ٣٢]

« أن تشبيه أحد الشيئين بالآخر لا يقتضى الحكم بمشابهتهما من كل الوجوه »[3] وهذا موافق لما قرره من قبل ، ولا تعقيب عليه .

---

(١) المصدر نفسه ١٥ ، ١/ ٢٥٥ – ٢٥٦ . (٢) التفسير الكبير ٤ ، ١/ ٩٨ – ٩٩ .

(٣) المصدر نفسه ٦ ، ١/ ٢١٨ .

ولكنه أردفه بقوله : « لأن قولنا هذا يشبه ذاك أعم من قولنا : إنه يشبهه من كل الوجوه ، أو من بعض الوجوه ... »[1] .

وهذا القول يدل – فيما أظن – على أن تشبيه أحد الشيئين بالآخر يشمل صورتين :

إحداهما : أنه يشبهه فى كل الوجوه .

ثانيتهما : أنه يشبهه فى بعض الوجوه .

ولعله يرى أن وجه الشبه أحيانا يكون فى كل الأمور .

والذى يبدو لى أن اشتراك الطرفين فى أمر واحد ، أو أكثر ، أمر يؤيده الواقع ، وتقرره طبائع الأشياء ، فمن الواضح أن تشبيه الشجاع بالأسد إنما هو فى الشجاعة ، ولا يعقل أن يكون التشبيه به فى جميع صفاته .

موقف بعض البلاغيين من عموم وجه الشبه :

تناول بعض البلاغيين قبل الإمام الرازى وبعده وجه الشبه من ناحية عمومه، أو عدم عمومه ، ورأوا أن وجه الشبه لا يمكن أن يأتى فى كل الأمور فأبو هلال العسكرى يذكر أن الشئ لو أشبه الشئ فى كل أموره ، لكان هو نفسه يقول فى ذلك :

« ويصح تشبيه الشئ بالشئ جملة ، وإن شابهه من وجه واحد ، مثل قولك: وجهك مثل الشمس ، ومثل البدر ، وإن لم يكن مثلهما فى ضيائهما ، وعلوهما، ولا عظمهما ، وإنما شبهه بهما لمعنى يجمعهما وإياه ، وهو الحسن ، وعلى هذا قول الله عز وجل ﴿ **وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ** ﴾ [الرحمن:٢٤] . إنما شبه المراكب بالجبال من جهة عظمها ، لا من جهة صلابتها ، ورسوخها ، ورزانتها ، ولو أشبه الشئ الشئ من جميع جهاته لكان هو هو [2] وقد اتبع سنته ، وسار على نهجه ابن رشيق فقال :

---

(١) المصدر نفسه والموضع .

(٢) كتاب الصناعتين / ٢٦١ – ٢٦٢ .

«التشبيه صفة الشئ بما قاربه ، وشاكله من جهة واحدة ، أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته ؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية ، لكان إياه ، ألا ترى إلي قولهم: خد كالورد ، إنما أرادوا حمرة أوراق الورد ، وطراوتها ، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه [1] .

من أجل ذلك قرر حازم القرطاجنى أن أدوات التشبيه وضعت ، لتدل على وجود التشبيه ، دون التفات إلى مقدار وجه الشبه ، قَلّ ، أو كثر فقال :

« . . فإذا قيل فى الشئ إنه كالشئ و كان فيه شبه منه ، فهو قول حق ؛ لأن الكاف ، وحروف التشبيه إنما وضعت ، لأن تدل على الشبه ، من حيث إنه موجود ، قل، أو كثر، لا من حيث الكمية، فقد يقوى الشبه ، ويضعف . . »[2] .

وذكر السكاكى أن الطرفين بينهما اشتراك ، وافتراق ، واختلاف ، وائتلاف، فقال: « لا يخفى عليك أن التشبيه مستدع طرفين : مشبها ومشبها به، واشتراكا بينهما من وجه ، وافتراقا من آخر ، مثل أن يشتركا فى الحقيقة ، ويختلفا فى الصفة ، أو بالعكس ، فالأول كالإنسانين إذا اختلفا صفة : طولا ، وقصرا ، والثانى كالطويلين إذا اختلفا حقيقة : إنسانا ، وفرسا ، وإلا فأنت خبير بأن ارتفاع الاختلاف من جميع الوجوه حتى التعين، يأبى التعدد، فيبطل التشبيه؛لأن تشبيه الشئ لا يكون إلا وصفا له بمشاركته المشبه به فى أمر . . »[3] .

وفى هذا كله دلالة واضحة على أن وجه الشبه لا يكون عاما شاملا لكل الأمور بين الطرفين .

تشبيه الشئ الواحد بشيئين مختلفين :

إذا علمنا أن وجه الشبه يأتى فى أمر واحد ، أو أكثر ، وليس فى كل الأمور، فإنه يمكن أن يشبه الشئ الواحد بشيئين ، أو أشياء ، إذا اختلفت الصفة المشتركة بين الطرفين فى كل تشبيه .

---

(١) العمدة ١ / ٢٨٦ .
(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء / ٧٥ .
(٣) المفتاح / ١٥٧ .

وقد وجدت من هذا القبيل موازنة رائعة عقدها الإمام الرازى بين تشبيه الناس يوم القيامة مرة بالجراد المنتشر ، وأخرى بالفراش المبثوث وهما شيئان مختلفان ، ورأى أن ذلك أمر مقبول ، ما دام وجه الشبه مختلفا يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ** ﴾ [القارعة : ٤] .

« واعلم أنه تعالى وصف ذلك اليوم بأمرين الأول كون الناس فيه كالفراش المبثوث ، قال الزجاج : الفراش هو الحيوان [١] الذى يتهافت فى النار ، وسمى فراشا ، لتفرشه ، وانتشاره ، ثم إنه تعالى شبه الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث ، وفى آية أخرى بالجراد المنتشر [القمر: ٧] أما وجه التشبيه بالفراش ، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة ، بل كل واحدة منها تذهب إلي غير جهة الأخرى ، فدل هذا على أنهم إذا بعثوا ، فزعوا ، واختلفوا فى المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة ، والمبثوث المفرق ، يقال بثه إذا فرقه » [٢].

ويتابع كلامه فى تلك الموازنة قائلاً : « ... وأما وجه التشبيه بالجراد ، فهو فى الكثرة ، قال الفراء : كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضا ، وبالجملة فالله سبحانه وتعالى شبه الناس فى وقت البعث بالجراد المنتشر ، وبالفراش المبثوث ؛ لأنهم لما بعثوا يموج بعضهم فى بعض كالجراد ، والفراش ، ويتأكد ما ذكرنا بقوله تعالي : ﴿ **فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا** ﴾ [النبأ : ١٨] . وقوله : ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [المطففين : ٦] وقوله فى قصة يأجوج ومأجوج : ﴿ **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ** ﴾ [الكهف : ٩٩] فإن قيل : الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار، فكيف شبه الشئ الواحد بالصغير ، والكبير معا ؟ قلنا : شبه الواحد بالصغير ، والكبير ، لكن فى وصفين ، أما التشبيه بالفراش ، فبذهاب كل واحدة، إلى غير جهة الأخرى ، وأما بالجراد ، فبالكثرة ، والتتابع ، ويحتمل أن

---

(١) الفراش ليس حيوانا ، بل هو من الحشرات . ينظر الموسوعة الثقافية / ٧٠٧ .

(٢) التفسير الكبير ١٦ ، ٢ / ٧١ – ٧٢ .

يقال : إنها تكون كبارا أوّلاً كالجراد ، ثم تصير صغارا كالفراش ، بسبب احتراقهم بحر الشمس ... [1] .

ويبدو من كلامه السابق أنه جعل تشبيه الناس وقت البعث بالجراد ، والفراش فى وقت واحد .

ولكن الإمام القرطبى جعله فى حالين مختلفين ؛ لأن أول حالهم كالفراش لا وجه له ، يتحير فى كل وجه ، ثم يكونون كالجراد ؛ لأن لها وجها تقصده[2] .

وقد نقل الشيخ الصاوى كلام القرطبى ، وأضاف إليه كلمات قليلة ، فقال : « وجه الجمع بين ما هنا ، وبين آية ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر : ٧] .

أن أول حالهم كالفراش يقومون من قبورهم متحيرين ، لا يدرون أين يتوجهون ثم لما يدعون للحساب ، يكونون كالجراد ؛ لأن لها وجها تقصده » [3] .

وسواء شبه الناس بالجراد ، والفراش ، لاختلاف الصفات ، أو الأحوال فإن الذى يعنينا أن الشئ الواحد قد يشبه بشيئين ، أو أكثر .

وكما ذكر الإمام الرازى هنا أن الشئ الواحد قد يشبه بشيئين ، فقد ذكر فى كتابه البلاغى أن الشيئين قد يشبهان بشئ واحد ، إذا كانت الصفات المشتركة بينهما متشابهة كقول الشاعر :

صدغ الحبيب وحالى كلاهما كالليالى [4]

* * *

وجه الشبه المفرد والمركب والمتعدد

علمنا – فيما سبق – أن الوصف المشترك بين المشبه ، والمشبه به ، يكون أمرا واحدا وحينئذ يسمى مفرداً ، وقد يكون الاشتراك بينهما فى أكثر من وصف مختلف ، ويسمى هذا الوجه متعددا .

---

(١) المصدر نفسه ١٦ ، ٢ / ٧٢ . (٢) تفسير القرطبى / ٧٢٥٥ .

(٣) حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ٤ / ٣٤٧ .

(٤) ينظر نهاية الإيجاز ... / ٦٢ .

وقد يكون هذا الاشتراك فى أوصاف كثيرة ، لكنها تضامت ، وتلاصقت ، وامتزجت حتى صارت كالشئ الواحد ، وذلك هو المعروف بالوجه المركب [١] .

ولم يسم الإمام الرازى هذه الأوجه بأسمائها فى تفسيره ، ولكنه ذكر فى كتابه البلاغى الوجه المفرد ، والمركب عندما عقد فيه فصلا (فى تقسيم ما به المشابهة إلي المفرد ، والمركب [٢] وأشار فى ذلك الكتاب إلى الوجه المتعدد عند حديثه عن التشبيهات المجتمعة [٣] .

ولن أفصل القول فى تفريعات هذه الأنواع وأمثلتها، اكتفاء بالحديث الآتى عنها حتى أكون بعيدا عن التكرار الممل .

* * *

---

(١) ينظر بغية الإيضاح ٣ /٢٣ وما بعدها . (٢) نهاية الإيجاز ... / ٦٦ – ٦٧ .
(٣) المصدر نفسه / ٦٨ – ٦٩ .

وجه الشبه المحسوس والمعقول

لو نظرنا إلى وجه الشبه نظرة أخرى ، فإننا نجده يأتى أحيانا من المحسوس ، وأحيانا من المعقول ، وكل منهما يأتى مفرداً ، ومركبا ، ومتعددا ، وقد يجمع المتعدد بين المحسوس ، والمعقول[١] .

وقد أورد الإمام الرازى بعض هذه الأنواع ، لعل من المفيد أن أعرض لها ، وأذكر طرفا من أمثلتها .

أولا : المفرد الحسى :

سبق فى هذا البحث تشبيهات جاء فيها وجه الشبه مفردا حسيا ، ولا بأس أن أذكر هنا بعضا منها ، فقد قال فى قوله تعالى : ﴿ **وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ** ﴾ [المعارج : ٩]

« الصفة الثانية [٢] أن تكون الجبال فيه [٣] كالعهن ، ومعنى العهن فى اللغة الصوف المصبوغ ألوانا ، وإنما وقع التشبيه به ؛ لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ، فإذا بست وطيرت فى الجو أشبهت العهن المنفوش ، إذا طيرته الريح [٤] .

وبناء على شرحه لهذا التشبيه ، يكون وجه الشبه هو اللون المختلف .

ومنه ما ذكره فى قوله تعالى : ﴿ **كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴾ [الحاقة : ٧] . فقد قال : « .. يحتمل أنهم شبهوا بالنخيل التى قلعت من أصلها ، وهو إخبار عن عظيم خلقهم ، وأجسامهم ، ويحتمل أن يكون المراد به الأصول ، دون الجذوع ، أى أن الريح قد قطعتهم ، حتى صاروا قطعا ضخاما ، كأصول النخل... » [٥] فوجه الشبه كما يفهم من كلامه العظم ، أو الضخامة .

---

(١) ينظر بغية الإيضاح ٣ / ٢٣ وما بعدها .

(٢) الصفة الأولى ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ** ﴾ [المعارج : ٨] .

(٣) أى فى يوم القيامة .

(٤) التفسير الكبير ١٥ ، ٢ / ١٢٥ .

(٥) المصدر نفسه ١٥ ، ٢ / ١٠٥ .

ثانيا : المفرد العقلى :

ذكر فى قوله تعالى : ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

عدة أوجه فى تشبيه الزوجين باللباس ، منها ما يعتبر وجه الشبه فيه مفرداً عقليا فقد قال فى أحد هذه الأوجه : « إنما سمى الزوجان لباسا ، ليستر كل واحد منهما صاحبه عما لا يحل ، كما جاء فى الخبر (من تزوج فقد أحرز ثلثى دينه) .. »[١] .

ويفهم من كلامه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا** ﴾ [البقرة : ٢٧٥] . أن وجه الشبه بينهما هو الحل من وجهة نظر أكلة الربا ، فيكون مفردا عقليا ، فمن كلماته حول هذا التشبيه : « .. وذلك لأن حل البيع متفق عليه ، فهم أرادوا أن يقيسوا عليه الربا، ومن حق القياس أن يشبه محل الخلاف بمحل الوفاق .. »[٢] .

ثالثا : المركب العقلى :

ذكر الإمام الرازى كثيرا من أوجه الشبه المركبة العقلية ، في أماكن من تفسيره ، وقد سبق بعض منها عند الكلام عن تشبيه المعقول بالمحسوس .

ومن المركب العقلى ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ [الجمعة : ٥] .

ومما قاله فى هذا التشبيه : « .. شبه اليهود إذا لم ينتفعوا بما فى التوراة ، وهى دالة على الإيمان بمحمد ﷺ ، بالحمار الذى يحمل الكتب العلمية ولا يدرى ما فيها ... فشبههم ، والتوراة فى أيديهم ، وهم لا يعملون بها بحمار يحمل كتبا ، وليس له من ذلك إلا ثقل الحمل من غير انتفاع بما يحمله ، كذلك اليهود ليس لهم من كتابهم إلا وبال الحجة عليهم[٣] .

---

(١) المصدر نفسه ٣ ، ١/١١٤ . وينظر الأطول ، للعصام ٢/٩٦ .

(٢) التفسير الكبير ٤ ، ١/٩٨ – ٩٩ . (٣) المصدر نفسه ١٥ / ٢/٥ .

وقد ذكر في (نهاية الإيجاز ...) أن الوجه فى هذا التشبيه من قبيل المقيد ، والظاهر أنه لا يفرق بين المقيد ، والمركب [1] .

ومن هذا الوجه أيضًا ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ...** ﴾ [الكهف : ٤٥] .

فقد قال : « اعلم أن المقصود اضرب مثلا آخر يدل على حقارة الدنيا ، وقلة بقائها ، والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين ، فقال : ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم** ﴾ أى لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم ، وأنصارهم على فقراء المسلمين ﴿ **مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ ثم ذكر المثل فقال ﴿ **كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ** ﴾ وحينئذ يربو ذلك النبات ، ويهتز ، ويحسن منظره كما قال تعالى : ﴿ **فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ [الحج:٥] . ثم إذا انقطع ذلك مدة جف ذلك النبات ، وصار هشيما ، وهو النبت المتكسر ، المتفتت ، ومنه قوله : هشمت أنفه ، وهشمت الثريد ، وأنشد :

عمرو الذى هشم الثريد لأهله ورجال مكة مسنتون عجاف

وإذا صار النبات كذلك ، طيرته الرياح ، وذهبت بتلك الأجزاء إلي سائر الجوانب ، ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا** ﴾ بتكوينه أولا وتنميته وسطا ، وإبطاله آخرا . وأحوال الدنيا أيضًا كذلك تظهر أولا فى غاية الحسن ، والنضارة ، ثم تتزايد قليلا ، ثم تأخذ فى الانحطاط إلى أن تنتهى إلى الهلاك والفناء ، ومثل هذا الشئ ليس للعاقل أن يبتهج به [2] .

رابعا : المتعدد المحسوس :

ذكر الإمام الرازى فى قوله تعالى : ﴿ **وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا** ﴾ [الإنسان:١٩] . عدة أوجه محسوسة فقال : « وفي

---

(١) ينظر الفخر الرازى والبلاغة العربية / ١٣٤ للدكتور محمد جلال الذهبى .

(٢) التفسير الكبير ١١ ، ١/ ١٣١ .

كيفية التشبيه وجوه : **أحدها** : شبهوا فى حسنهم ، وصفاء ألوانهم ، وانتشارهم فى مجالسهم ، ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المنثور ، ولو كانوا صفا ، لشبهوا باللؤلؤ المنظوم ، ألا ترى أنه تعالى قال : ﴿ **وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ** ﴾ فإذا كانوا يطوفون ، كانوا متناثرين ، **وثانيها** : أنهم شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا انتثر من صدفه ؛ لأنه أحسن وأكثر ماء . **وثالثها** : قال القاضى [1] هذا من التشبيه العجيب ؛ لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقا، يكون أحسن فى المنظر ، لوقوع شعاع بعضه على البعض ، فيكون مخالفا للمجتمع منه » [2] .

خامسًا : المتعدد المختلف :

ومن الوجه المتعدد الذى بعضه حسى ، وبعضه عقلى ، ما قاله فى قوله تعالى : ﴿ **وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ** ﴾

[الصافات : ٤٨ ، ٤٩]

فقد قال : « المكنون في اللغة المستور ، يقال : كننت الشئ ، وأكننته ، ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض ، يشوبه قليل من الصفرة ، فإذا كان مكنونا ، كان مصونا عن الغبرة والقترة ، فكان هذا اللون فى غاية الحسن . والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور »[3] .

وقد فهمت من كلامه أن وجه الشبه هو الصون ، واللون الحسن ، والصون وجه عقلى ، واللون الحسن وجه حسى .

* * *

---

(١) استظهر الدكتور على محمد العمارى أن المراد بالقاضى فى تفسير الإمام الرازى القاضى عبد الجبار . ينظر (الإمام فخر الدين الرازى حياته وآثاره) ١٥٢ – ١٥٤ .

(٢) التفسير الكبير ١٥ ، ٢ / ٢٥١ . (٣) المصدر السابق ١٣ ، ٢ / ١٣٨ .

التشبيه والتمثيل

اختلفت كلمة البلاغيين حول تطابق التشبيه والتمثيل ، أو اختلافهما ، وقد أدلى كثير منهم برأيه فى هذا الشأن ، وقد رأيت أن من المناسب قبل أن أعرض لموقف الإمام الرازى منهما ، أن ألقى الضوء على رأى الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، والزمخشرى وهما أبرز من تأثر بهم فى فكره البلاغى ؛ ليكون ذلك أعون على معرفة موقفه من التشبيه والتمثيل بدقة ووضوح .

أولا : موقف الشيخ عبد القاهر :

خلاصة هذا الموقف أنه فرق بين التشبيه والتمثيل ، فجعل التشبيه أعم من التمثيل فكل تمثيل عنده تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا ، وقد بنى هذا التفريق بينهما على اعتبار وجه الشبه ، فإذا كان وجه الشبه أمرا بينا بنفسه ، لا يحتاج إلى تأول ، وصرف عن الظاهر ، فهو تشبيه ، وليس تمثيلا ، وذلك يتحقق فى أمرين :

أولهما : أن يكون وجه الشبه حسيا ، سواء كان مفردا ، أو مركبا .

ثانيهما : أن يكون وجه الشبه غرزيا طبيعيا ، كالشجاعة ، والجبن ، والضعف والقوة ؛ لأن هذه الأشياء حقائق ثابتة معلومة فى المشبه والمشبه به أما إذا كان وجه الشبه يحتاج إلي تأول ، وصرف عن الظاهر ، كما فى قولنا : ألفاظ كالعسل فى الحلاوة [1] أو انتزع وجه الشبه العقلى من أمور جمع بعضها إلى بعض ، فإنه يكون تمثيلا ، لا تشبيها ؛ ولذلك فإن كل ما لا يصح أن يسمى تمثيلا عنده لا يستعمل فيه لفظ المثل [2] .

---

(١) البلاغة التطبيقية ، للدكتور أحمد موسى / ٢٤ ـ ٢٦ (بتصرف) وينظر أسرار البلاغة / ٦٨ وما بعدها .

(٢) أسرار البلاغة / ٧١ .

ثانيا : موقف الزمخشرى :

لم يفرق الزمخشرى بين التشبيه والتمثيل ، فهمًا عنده لفظان مترادفان ، متطابقان، يقول الدكتور أحمد موسى – رحمه الله :

« يرى الزمخشرى كما يرى علماء اللغة أن التشبيه يرادف التمثيل ، فهو يطلق كلمة التشبيه على ما يسمى عند غيره تمثيلا أو تشبيها ، كما يطلق كلمة التمثيل على ما يسمى عند غيره تشبيها أو تمثيلا »[١] .

وقد تحرج الدكتور محمد أبو موسى من قبول مثل هذه الدعوى قبل أن يتأكد من صدقها ويجد البيئة القاطعة التى تثبت مطابقتها للواقع فقال : « ذكر الناس أن الزمخشرى لم يفرق بين التشبيه والتمثيل ... وقد عنيت ببيان رأيه فى التشبيه والتمثيل ؛ ليتحقق عندى ما ذكره الناس من أنه لا يفرق بينهما ، وكان الذى يثبت هذا هو أن أراه قد أطلق اصطلاح التمثيل على صورة أو صور اتفق على أنها من التشبيه الصريح ، ولا يكفى أن يقول : أن المِثْل والْمَثَل والْمَثِيل ، كالشِّبْه والشَّبَه والشَّبِيه ؛ لأن هذه تفسيرات لغوية لا تدل على مفهوم اصطلاح معين... »[٢] .

وقد ظفر بطلبته ، ونال بغيته عندما وجده يطلق على التشبيه الصريح تمثيلا ، واعتبر هذا دليلا قاطعًا ، لا يتطرق إليه الاحتمال على أنه لا يفرق بينهما، فقد وجده يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ [لقمان: ١٩] . فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه ، وإخراجه مخرج الاستعارة وإن جعلوا حميرا ، وصوتهم نهاقا مبالغة شديدة فى الذم والتهجين ، وإفراط فى التثبيط عن رفع الصوت ، والترغيب عنه ، وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان[٣] .

---

(١) البلاغة التطبيقية / ٢٦ .

(٢) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى / ٤٠٢ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢١٤ .

وعلق على كلام الزمخشرى قائلا :

وتشبيه الأصوات بالنهاق تشبيه صريح ، ولكن الزمخشرى سماه تمثيلا ؛ وذلك لأنه كما قالوا : لا يفرق بينهما ، ولست أعتقد أن هناك دليلا واضحا على صحة هذه الدعوى أعنى عدم التفريق بينهما إلا كلامه فى هذه الآية فذلك هو الدليل الذى لا يتطرق إليه الاحتمال (١) .

ومما يجدر ذكره هنا أن الرأى الذى اشتهر أنه للزمخشرى ليس من أولياته ، بل سبقه إليه غيره ، فإن القاضى عبد الجبار لم يفرق بين التشبيه والتمثيل والمثل(٢) وكذلك ابن قتيبة لم يفرق بين التشبيه والتمثيل ، فقد قال : « المثل بمعنى الشبه يقال : هذا مثل الشئ ومثله ، كما يقال : شبه الشئ وشبهه قال الله تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا** ﴾ [العنكبوت: ٤١] . أى شبه الذين كفروا شبه العنكبوت ، وقال : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ [الجمعة : ٥] . أى شبههم الحمار (٣).

موقف الإمام الرازى :

بعد أن علمنا رأى الشيخ عبد القاهر ، والزمخشرى ، وغيرهما ، نود أن نتعرف إلى رأى الإمام الرازى ، وهل له رأي خاص به ، أو أنه تأثر برأْي أحد الشيخين ؟

وأود قبل أن أبدى ما توصلت إليه حول موقفه من التشبيه ، والتمثيل أن أشير إلي أن الدكتور محمد جلال الذهبى درس موقف الإمام الرازى من التمثيل، ولا حظ أنه يرى أن التمثيل ما كان وجه الشبه فيه مركبا ، ورجح أن يكون

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى / ٤٠٢ – ٤٠٣ .

(٢) ينظر بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار ... ، للدكتور عبد الفتاح لاشين / ٢٢٢ .

(٣) تأويل مشكل القرآن / ٤٩٦ .

مقصد الإمام الرازى المركب العقلى، يقول الدكتور الذهبى : « ... وإذا كان الرازى يرى أن التمثيل هو ما كان الوجه فيه مركبا ، فإن هذا يدعو إلي التساؤل : ماذا يقصد الرازى بالوجه المركب أهو المركب العقلى أو المركب الحسى ؟

والجواب : لم يصرح الرازى بمقصده من هذا المركب ، ولكن يمكن ترجيح أنه يقصد المركب العقلي لأمرين : **الأول** : الشاهد الذى ذكره مثالا لهذا المركب وهو قوله تعالي : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ . **الثانى** : ما قاله فى أثناء تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ** ﴾ [البقرة : ١٧] أن الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلى والغائب بالشاهد ، فيتأكد الوقوف على ماهيته ، ويصير الحس مطابقا للعقل وهذا يكون فى تشبيه العقلى بالحسى ، وعندما يكون أحد الطرفين عقليا ، فإن الوجه يتعين كونه عقليا (١) .

وينبنى على هذا الترجيح أن الإمام الرازى يفرق بين التمثيل ، والتشبيه ، فالتمثيل عنده هو ما كان وجه الشبه فيه مركبا عقليا ، والتشبيه ما كان الوجه فيه مفردا سواء كان حسيا أو عقليا أو كان هذا الوجه مركبا حسيا .

والذى تبين لى بعد بحث طويل ، وتأمل فى كلامه ، وهو يتناول تشبيهات القرآن الكريم أن التشبيه والتمثيل عنده بمعنى واحد .

وقد ظفرت من كلامه بما يؤكد هذا الأمر ، فقد استعمل كلمة مَثَّلَ ، وَشَبَّهَ، وتشبيه ، وتمثيل فى التشبيه المفرد الصريح ، وهذا يدل على أنه لا يفرق بين التشبيه والتمثيل ، ومن ناحية أخرى فإنه يدل على أنه لا يفرق بين المفرد والمركب .

فقد قال عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ ... **يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ**

---

(١) الفخر الرازى والبلاغة العربية / ١٦٢ وينظر نهاية الإيجاز / ٨١ ، ٩٠ .

﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر : ٧] . وقوله : ﴿يَخْرُجُونَ﴾ مَثَّلَهُمْ بالجراد المنتشر فى الكثرة والتموج [١] .

فعبر عن هذا التشبيه المفرد الصريح المحسوس بـ (مَثَّلَهُمْ ...) .

ولكنه عندما وازن بين هذا التشبيه والتشبيه فى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة : ٤] .

قال : « ... ثم إنه تعالى شبّه الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث ، وفى آية أخرى بالجراد المنتشر [٢] أما وجه التشبيه بالفراش ، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة ، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، فدل هذا على أنهم إذا بعثوا ، فزعوا ، واختلفوا فى المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة ، والمبثوث المفرق يقال : بثه إذا فرقه ، وأما وجه التشبيه بالجراد فهو فى الكثرة ... [٣] .

فنجده قد عبر عن التشبيه الواحد ، وهو تشبيه الناس بالجراد المنتشر مرة بـ (مثّلهم ...) ومرة أخرى بـ (شبّه الخلق ...) .

وقال عنه أيضاً فى عبارته الأخيرة : (وأما وجه التشبيه بالجراد المنتشر ...) وهذا يدل دلالة قاطعة على أن التمثيل عنده ليس خاصا بما كان وجه الشبه فيه مركبا ، فضلا عن كونه مركبا عقليا .

وأكثر من ذلك وجدته يطلق على التشبيه الواحد فى بعض المواضع – تمثيلا ويطلق عليه فى موضع آخر تشبيها ، وهو تشبيه مفرد كذلك .

فقد تكلم عن التشبيه فى قوله تعالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة : ١٩] . مرتين ، مرة عند تفسير قوله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

---

(١) التفسير الكبير ١٥ ، ١ / ٣٥ .

(٢) هى آية القمر السابقة .

(٣) المصدر نفسه ١٦ ، ٢ / ٧١ – ٧٢ .

وَسَمَّاهُ تمثيلا فقال : «قوله : ﴿ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ** ﴾ فيه حذف ، وفى كيفيته وجوه :

أحدها : ولكن البر برُّ من آمن بالله ، فحذف المضاف ، وهو كثير فى الكلام كقوله ﴿ **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ** ﴾ [البقرة : ٩٣] . أى حب العجل ، ويقولون : الجود حاتم ، والشِّعْرُ زهير ، والشجاعة عنترة ...» (١) .

ثم نقل عن بعضهم قوله : «ومثل هذه الآية قوله : ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ** ﴾ ثم قال : ﴿ **كَمَنْ آمَنَ** ﴾ وتقديره : أجعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن ، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن ؛ ليقع التمثيل بين مَصْدَرَيْنِ ، أو بين فاعلين؛ إذ لا يقع التمثيل بين مصدر وفاعل ...» (٢) .

وتكلم عن التشبيه فى آية التوبة مرة أخرى عند تفسيرها فى موطنها ، وسماه تشبيها ، فقال : «وقوله : ﴿ **مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ** ﴾ إشارة إلى الفاعل ، فظاهر اللفظ يقتضى تشبيه الفعل بالفاعل والصفة بالذات (٣) وأنه محال ، فلابد من التأويل ، وهو من وجهين : **الأول** أن نقول : التقدير أجعلتم أهل سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله ؟ ويقويه قراءة عبد الله بن الزبير (سُقَاة الحاج ، وَعَمَرَة المسجد الحرام) .

والثانى : أن نقول : التقدير أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن بالله ؟ ونظيره قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ** ﴾ » (٤) .. فكون الإمام الرازى يجعل التشبيه الواحد مرة تمثيلا ، ومرةأخرى تشبيها يجعلنا نجزم بأن التشبيه والتمثيل عنده لفظان مترادفان .

---

(١) التفسير الكبير ٣ ، ١ / ٤١ .

(٢) يقصد من المصدرين (سقاية ، وإيمان) ومن الفاعلين : (أهل ، ومن آمن) وهما فاعلان فى المعنى ، أما فى اللفظ فهما مجروران .

ويقصد من المصدر فى آخر كلامه (سقاية) ومن الفاعل من ينظر المصدر نفسه والموضع .

(٣) لعله يقصد من الفعل (السقاية والعمارة) والفاعل (من آمن) والصفة (السقاية والعمارة) لقيامهما بالغير معنى ، والذات (من آمن) .

(٤) التفسير الكبير ٨ ، ٢ / ١٣ .

وقد يكون متأثرا فى ذلك بالزمخشرى ، أو غيره ممن لا يفرقون بين التشبيه والتمثيل .

وقد ارتضى ابن الأثير مسلك من لا يفرق بينهما ، وأشاد به ، وعاب من فرق بينهما ، فقال : « وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه ، والتمثيل ، وجعلوا لهذا بابا مفردا ، ولهذا بابا مفردا ، وهما شئ واحد لا فرق بينهما فى أصل الوضع ، يقال : شبهت هذا الشئ بهذا الشئ ، كما يقال مثلته به ، وما أعلم كيف خفى ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ، ووضوحه »[1] .

* * *

(١) المثل السائر ٢ ، ١١٥ .